

خالد محمد خالد

معاً على الطريق ..

محمد والمسير

«الأنبياء إخوة ...»

«أمهاتهم شتى»
«وبيئتهم واحد ..»

اسعار كتاب اليوم في الخارج

الجلبيه العلوي ١	دينار
المغرب ٢٥	درهم
لبنان ١٢٠٠	ليرة
الأردن ١٠٠٠	فلس
العراق ٧٠٠	فلس
الكويت ٧٥	فلس
السعودية ١٠	ريالات
السودان ١٥٠٠	قرش
تونس ٢٠	دينار
الجزائر ١٧٥٠	ستينيا
سوريا ٥٠	ل.س
الجيشة ٦٠٠	ست
البحرين ١٠٠٠	فلس
سلطنة عُمان ١٠٠٠	بيسة
غزّة ١٥٠	ست
ق. البيضاء ٣٥	ريال
لوبطسيفيا ٨٠	بى
السنغال ٦٠	فرنك
الامارات ١٠	درهم
قطر ١٠	ريالات
الاحترا ١,٧٥	بني
فرنسا ١٠	فرنك
المانيا ١٠	مارك
ايطاليا ٢٠٠٠	ليرة
هولندا ٥	فلورين
بلجستان ٣٥	ليرة
سويسرا ٤	فرنك
اليونان ١٠٠	دراخمة
النمسا ٤٠	شلن
الدنمارك ١٥	کرون
السويد ١٥	فلورن
الهند ٣٥٠	روبية
كندا امريكا ٣٠٠	ست
الرازيل ٤٠٠	کروبيو
بروبيداشت ٣٥٠	ستنا
تونس الخطون ٤٠٠	ست
استراليا ٤٠٠	ست

كتاب اليوم

● العدد ٣٢٨

أسسه

مصطفى أمين وعلى أمين

رئيس مجلس الادارة :

إبراهيم سعد

المشرف على التحرير

• جمال الغيطاني •

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ١٦ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى

والافريقى ١٥ دولارا امريكا او ما يعادله

باقي دول العالم وأوربا والامريكيتين

وآسيا واستراليا ٢٠ دولارا امريكا او ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٣ (١) ش الصحافة

القاهرة ت ٤٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

غلاف : عفت



بَيْنِ يَدَيِّ هَذِهِ الطِّبْعَةِ مِنَ الْكِتَابِ ..

كلما دعنتني دار «أخبار اليوم» لإعادة نشر بعض مؤلفاتي في «كتاب اليوم» ، سارعتُ إلى هواها .

لا رغبة في مزيد من الشهرة ، ولا في مزيد من الثروة ..
ولكن لأن لدار «أخبار اليوم» عندي صنيعاً لا ينسى .. فهى أول دار صحفية كبرى بشرت بي كمؤلف وكاتب .. ووافت مع أول مؤلفاتي - «من هنا .. نبدأ» موقف الذائدين عن الحرية ، والآحرار .

ولن انسى الحديث الصحيفي الودود الذى اجراءه معى الا والصديق السيد المستشار « عبد الحميد يونس » أيام كان محرر في صحيفة « أخبار اليوم »، والذي كان اول إشهار للكتاب وللكاتب

○ ○ ○

ولقد أعاد «كتاب اليوم» نشر بعض مؤلفاتي، كما أعاد نشر كتاب : «معاً على الطريق» مرتين وهذه هي الثالثة.

وإنى بهذا لسعيد : إذ يتيح «كتاب اليوم» للقارئ العربي والمصرى بخاصة ، فرصة «دهاقي» و «وسيقة» بنشره الغزير وإعلانه الوفير .. وبالثمن الوديع والمستطاع الذى يقدم به الكتب - اى كتاب - لقرائه وظلماه .. فشكرا لأخبار اليوم .. وشكرا لكتاب اليوم .. وبين يدى القراء .. وامام العقل ، والرشد ، والضميد أعيد - مع كتاب اليوم - إضاعة إحدى شموع العقل ، والرشد والضميد

2

ولانعرف كالأنبياء والمرسلين من . ادقاوا الحياة بالمؤودة
وحمّلوا الإخاء بالصفاء ، وارتفعوا بالصحبة في الله إلى أعلى
المستويات ، وأبعدوا الغايات ، واسعى ، الأفاق .

كما لا نعرف مثل « ابن الله » إنساناً يُضفي الحياة ،
يعيشه .. واترعنها ربياً من شبعه ، وكوثره ، وتغیره .. !
والإنسان ، والحياة لدى سيدنا الرسول ﷺ وسيدنا المسيحي
هما أفحى الرسالة وفزانها !!

من أجل ذلك لن ترؤوا في هذا الكتاب تاريخاً للرسول ،
ولا للمسيح .. بل بحثاً عن الإنسان وعن الحياة في تعاليمهما
الرشيدة ومواقعهما المجيدة مع الإنسان ، ومع الحياة !!
و حين وجَدْتُني أكتب عن الرسول ﷺ والمسيح معاً ، الفيتنى في
نفس اللحظة ، ولنفس السبب ، أكتب عن الإنسان والحياة ..
ذلك لأنّى أعرف تماماً - لماذا جاء « محمد » ؟؟ ولماذا جاء
« يسوع » ؟؟

○ ○ ○

والآن - والبشرية تعيش في جيل الظلمات .. والناس في كل واد
قد فسدت ذمّتهم ، وتسعّرت نفوسهم ، وحصّرَت صدورهم ..
وتغشّاهم الريب من عدل الله وقضائه - اضطروا في أقسى الحاجة
إلى الإصلاح لكلمات الرسول والمسيح .

وفي أشد الحاجة إلى السير « معاً » على نفس الطريق الألّاحب
القويم والمستقيم الذي سار عليه « معاً » الصادقان الأمينان
الخالدان .. ففي هذا - لا قبله ولا بعده - يفقد الإنسان يومه
التعس .. وتتجدد الحياة مستقبلاً المُرجي ..

● وعلى الذين يأكلون قوئهم ضعيفهم ، ويأترون بالحق ليختفوا
ويزهقوه .. ويعقدون ل الاجتماعات والمؤتمرات والمؤامرات ،
ليلبسوا القلم ثياب الشرعية ، ويحوّلوا السرقات إلى قوانين ،
وقرارات .. !

- على كل دولة تمشي فوق لشلاء الشخصيات حطاماً .
- وعلى كل حكومة وسلطة تسموّ الفلس . يطفواها ..
- على كل جماعة أو طائفة تتحذّل العطف والتقتل وسيلة الدعوة ،
ويُنغوتها عوجاً ، ويختفون من قدينتهم مسجداً ضيراً !!
- على كل قبر يسرق .. يبغش .. يقطّم .. يخون .. يكتب ..
يختلف .. يبيع في أخلاقي الأسوق .. ويشرى في لرخصها ..
- على هؤلاء جميعاً ولو لفتك أن ينجزعوا ما في قلوبهم من مرض ،
ويذكروا أنهم إلى ربهم راجعون .

• ولنعلم جميعاً أن الإنسانية كلُّها أشَّرَّتنا . والعالم كله
قريئنا ..
وأن مسئوليَّتنا تجاه الآثرين - كما هي تجاه أنفسنا - مائلة في
دعم الحب الذي لا يعرف الكراهيَّة .. والسلام الذي لا يعرف القلق ..
والعدل الذي لا يعرف البغي .. والخلاص الذي لا يعرف التهلكة ..
والباقيات الصالحة في الفكر ، والإرادة ، والسلوك .
فلهذا جاء الحياة « محمدُها » و « ويسُوغُها » .. وعلى هذا
الطريق سارا .

فالصلوة والسلام عليهما من ربنا العلی الأعلی ..
وسلام على عباده الذين اصطفى ..

خالد محمد خالد

الإهداء

إلى الذين يعملون في مثابرة ، ومحبة
من أجل الإنسان ..
ومن أجل الحياة ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا ما أريده تماماً ..

آن أقول للذين يؤمنون بال المسيح ، وللذين يؤمنون

· محمد ·

برهان إيمانكم إن كنتم صادقين ، أن تهباوا اليوم جميعاً
لحماية الإنسان .. وحماية الحياة !! ..

وليس هذا الكتاب تارياً للمسيح ، ولا تارياً
للرسول .. فتاریخهما قد يُبسط بسُطُّه لايُشجع على
التكرار ..

وإنما هو تبيان لموقفهما من الإنسان ، ومن الحياة ..
أو بتعبير أكثر سداداً .. موقفهما « مع » الإنسان ..
و « مع » الحياة ..



لقد أخذتني حنيناً واع إلى الكتابة عن الرسول ، وعن
المسيح .. وفي ذات الوقت . كان ينادي بي الواجب الذي
كرست له ، أو أريد - دوماً - أن أكرس له حياتي .. وهو
الاسهام في حماية الإنسان ، والحياة ، من الكذب .. ومن
العجز .. ومن الخوف ...

وفي اللحظة التي يعطي فيها وجداً الكاتب إشارة
البدء ، وجدتني أكتب هذا الموضوع ، تحت هذا
العنوان .. !

ولم أسأل نفسي ، كيف تمَّ هذا اللقاء السعيد بين
رغبتى فى أن أكتب عن محمد . وأخيه ، ورغبتى فى
الكتابة عن الإنسان ، والحياة .. !
فأنا أكاد أعرف - تماماً - لماذا جاء محمد .. ولماذا جاء
المسيح ..

وإنه فوق أرض فلسطين ، شهد التاريخ يوماً ، إنساناً
شامخ النفس ، مستقيماً الضمير ، بلغ الإنسان في تقديره ،
الغاية التي جعلته ينعت نفسه بـ « ابن الإنسان » ..
وابن الإنسان هذا ، ذو العبير الإلهي . تركنا كلماته ،
ويتركنا سلوكه .. ندرك إدراكاً وثيقاً ، الغرض العظيم
الذى كابد تحقيقه ، ألا وهو : إنهاض الإنسان ، وإزهار
الحياة .

ومن بعده بستمائة عام .. تأخذ الأرض زينتها ل تستقبل
إنساناً آخر . ما يكاد يُسأل عن أفضل الأعمال وابقاها ،
حتى يجيب : بذل السلام للعالم .. وان تعيشوا - عباد
الله - إخواناً !!

ويغار على الإنسان .. حتى إن فؤاده الذكي ، ليكاد
يتفتر أسى على موبقاته .. ويتفجر أملأ في مستقبله ،
وثقة في قدراته .
أيها الإنسان ..

لماذا تسجد للأصنام ..؟؟ ولو كان ثمة من يُسجد له غير
الله .. لكنَّ وحدك ذلك المحبود ..!

ولماذا تذلُّ للسَّادة ، والأَغْلِين .. وانت هنا ، وفي هذه
الأَرض ، خليفة الله .. !

ويا أيها الناس ..

لماذا تعيشون طبقات .. وقد خلقكم الله سُوا سَيَّة
كأسنان المُشَط ، ولم يجْعَل لابن البيضاء على ابن
السوداء فضلٌ إِلا بالعمل والتقوى ..

ويحب الحياة حُبًّا عاشِق عظيم .. فيستقبلها عند صُبح
النهار ، وممساه .. وفي ناشئة الليل ، وأخراه .. ويُعانقها
في الزرع الطالع وفي المطر الهاطل ..



وبعد ، فعلى الصفحات المُقبلة ، سنلتقي بفيض من
اللُّفَتَات الذكية ، والتوجيهات السديدة التي نَحْت عن
الإِنسان كثيراً من مثبطاته . وسنُبصِر في ضياء اللمسات
الرفيعة الهدية ، جميع الجلال الذي أراده للإِنسان
والحياة ، محمد ، المسيح ..

ومن سلوكيهما هذا ، وتوجيهاتهما تلك ، سيأخذ ولاء
المؤمنين بالإِنسان وبالحياة ، زاداً باقياً .

وحسينا هذا ، حين ذكرهما في مقام التأريخ
والتمجيد .. وفي مقام القدوة والتأسي .



خالد

مراجعة

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - الكتاب المقدس
- ٣ - تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث
الرسول
- ٤ - ابن الإنسان - اميل لودفيج
- ٥ - قصة الحضارة - ديورانت

■ الفصل الأول ■

سُقْرَاطٌ يَقْرُئُ الْأَجْرَاسِ

كانا نباً مُستسراً في مشيئة الله ، لم يُعرف
بعد .. ولا تنبأ بقدومهما أحد ..
وكانت الحياة ماضية على نهجها ،
وبين الحين والحين ، تقدم للناس نماذج
سديدة من البشر ، يأخذ ذووها مكان
الرواد والقدوة ، أمام الصفوف الزاحفة
من الخلق ، وتخربهم الحياة مثلاً لسعتها
الحيث في سبيل التفوق ، والكمال .

وعلى حين بقعة ، ومن بيت متواضع يقيم داخل
جدرانه رجل فقير يحترف نحت الحجارة ، وصنع
التماثيل .. فتحت الحياة باباً ضيقاً ، ليخرج منه إلى
الدنيا إنسان جاحظ العينين أقطس الأنف ، قد زهدت
قسمات وجهه في الوسامنة ، فارأوازت عنها ، وتلتفعت
بخشونة مستأنسة .. وترقب الناس في لامبالاة ، شفتيه
الغليظتين لينظروا ما وراءهما ، إن كان وراءهما شيء .
واقترب الرجل في خطوات وئيدة ثابتة ، ونظرات
حصيفة طيبة . وتحركت شفتاه الغليظتان في آناء ،
وتحولت ابتسامت الناظرين إليه ، إلى قهقهات عالية .
— ياله من ساذج .. لماذا لا يفتح فمه ويرينا ..!
وواصل تقدمه ، خطوة ، وفي الجموع سر غامض
يدعوها لتفسح له الطريق ، حتى إذا شقها صفين
طويلين ، وأشرف على وجودها ، بأذة الوجه المنتظرة
بسؤال :

— لماذا لا تبحثون عن الخير؟؟

— لأننا نعرفه ، ياسقراط .

— إذن ، فلماذا ما دمتم تعرفونه ، لاتفعلونه ..؟؟

—ليس يكفي أن تكون خبراء في حذقه ياسقراط .؟؟

— كلا ! ليس الخبرير في الخير من يعرفه ، بل من
يعلمه .. !!

ثم إنني أشك في مجرد خبرتكم به ، ومعرفتكم له .. فهل
تறعونه حقاً ..؟؟

— أَجْلُ ، أَجْلُ . نَعْرُفُهُ كَمَا نَعْرُفُ أَنفُسَنَا .

— إِذْنُ ، فَإِنْتُمْ تَعْرُفُونَ الْغَرْضَ الْحَقِيقِيَّ لِحَيَاتِكُمْ ..

— نَعَمْ .. أَنْ نَعْيَاشُ ، يَا سَقْرَاطَ .

— لَكِنَ الْبَهَائِمُ تَعْيَاشُ ..

— نَعْيَاشُ عِيشَةَ صَالِحةَ ، يَا سَقْرَاطَ ..

وَصَاحَ سَقْرَاطُ وَسْطَ لَجَّةَ مِنَ الْحَبُورِ :

حَسْنُ هَذَا .. حَسْنٌ كَثِيرًا .. وَإِذْنُ ، تَعَالَوْا نَعْرُفُ مَا هِيَ

الْمَعِيشَةُ الصَّالِحةُ .. فَعَنْدَئِذٍ — فِيمَا أَظَنَ — سَنَكُونُ قَادِرِينَ

عَلَى أَنْ نَعْرُفَ ، مَا هُوَ الْخَيْرُ .

ثُمَّ أَخْذَهُ مَا يُشَبِّهُ الرُّغْوَاءَ ، فَحَنَى رَأْسَهُ قَلِيلًا ، وَأَسْبَلَ

جَفْنِيهِ ، وَبَعْدَ حِينٍ عَادَ إِلَى وَضْعِهِ الْأَوَّلِ ، لِيَقُولَ لَهُمْ :

« إِنَّهَا الإِشَارَةُ الْإِلَهِيَّةُ تَعَاوَدَنِي .. إِنَّهَا

تَأْمُرَنِي أَنْ أَتَعَاوَنَ مَعَكُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ

الْحَقِّ ، لَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلْعَمَلِ بِهِ قَبْلَ

مَعْرِفَتِهِ » ..

مَاذَا كَانَ هَذَا الرَّجُلُ سَقْرَاطُ .. ??

وَمَا عَلَاقَتِهِ بِحَدِيثِ عَنْ مُحَمَّدٍ ، وَالْمَسِيحِ .. ??

أَمَا عَلَاقَتِهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، فَجِدُّ وَثِيقَةٍ ، وَغَمَّا قَرِيبٌ

نَتَبَيَّنُهَا .

وَأَمَّا هُوَ فَأَبُو الْفَلْسَفَةِ ، الَّذِي عَلَمَ النَّاسَ أَنْ يَبْحَثُوا ،

وَيَفْكِرُوا - وَالَّذِي لَا يَزَالُ الْفَكَرُ الْإِنْسَانِيُّ يَحْيَا فِي ضِيَاءِ

بَاهِرٍ مِنْ عَقْلِهِ ، وَمِنْ عُقُولِ تَلَامِذَتِهِ .. !!

ولكن ، أليس عجباً أن أبا الفلسفة هذا ، الذي زلزل سكينة العقول الهاجعة بسؤاليه الدائبين : كيف ..؟ ولماذا ..؟ والذي أطلق عقله الممحض الجواب ، يفضل مغاليق الأسرار ، ويناقش المسلمات ...
اليس عجباً أن يصفعي لصوت آخر ، له طبيعة غير طبيعة العقل ، ذلكم هو صوت الوحي .. أو ما أسماه هو : « الإشارة الإلهية » ..؟

إن هذه أولى علاقات سocrates بحديثنا ، وليس آخرها .. وإن في حياته معلم كثيرة جديرة بأن تتملاها ونشاهدتها ، فلنعش لحظات في صحبة هذه الحياة .. لقد ازدهرت « أثينا » ببرجلها المضيء ، وتحولت بذكائه الثاقب ، وروحه الحى ، إلى حديقة زاخرة بثمار المعرفة وقطوفها الدانيات .

وأناء الليل ، واطراف النهار ، أخذت شوارعها ، واندیتها تشهد عقلاً فذاً يعبرها دواماً ويفشاها . كأنساً أمامه لغو « المشائين » وسفسطتهم ، وهاتفاً ياسمع ما في الإنسان كي يستيقظ ويقيق .

وإنه ليناقش الناس في كل شيء ، ويدبر الحوار في غير تهيب ، حول الآلهة ، والفضيلة ، والخير ، والشر ، والجمال .. ثم لا يفتا يذكر بآتنا نحمل داخل ذاتنا شيئاً ، هو أثمن ممتلكاتنا .. شيئاً عظيماً وقوياً ينتظر منا أن نعرفه ونجيد معرفته : ذلك الشيء ، هو أنفسنا ..

إننا لسنا هملاً . ولسنا نَفْضَ الدهر ، ولأنَّا
المصادفات ، بل نحن أبناء مشيئة كبرى أصطنعتنا
لأغراض كبير .. ونقطة البدء في مسيرنا الطويل هي معرفة
أنفسنا ..

ومضي ، يلقي العقل الإنساني ، ويهدى القلب ، حتى
جاء اليوم الذي شق فيه على الأرض أن تتحمل وطأته
الجليلة .. وتقدم بعض الشريرين كي يضعوا الخاتمة
اللائقة لحياة باهرة ، يراد لها من بارئها أن تكون مثلاً
يُحتذى ، وعزاء يلتمس ، ومشعلاً يهدى إلى خير ما في
الحياة من فضائل باقية : الصدق .. والبذل ، والمثابرة .
ويجتمع قضاة أثينا ليحاكموا الفيلسوف بتهمتي
الهجوم على الآلهة ، وإفساد الشباب .
وساق الاتهام كل ما استطاع حشده من فنون الأفك
وصنوفه .

وتقدم الإنسان الصادق ، الباذل ، المثابر ، وانفرجت
شفتاه الغليظتان في غير بطء هذه العرة .. كان صاحبهما
يعانى شوقاً إلى مصيره الذي أسماه الناس الموت ،
وأسماه هو الانتقال ، أو السفر .

وفي هذه اللحظات أكثر من سواها ، وجد سocrates
حقيقة وعرفها . فاراد - قبل أن يمضي - أن يلخص كل
دوره ومهنته . وأراد - قبل أن يمضي - أن ينفح في هذا
الدور من روحه الخلائق بالخلود ليبقى دوره حياً من
بعده . يمشي في الدروب مثلاً كان يمشي .. ويغشى

الأندية التي كان يغشاها . ويتحدث إلى الناس الذين طالما تحدث إليهم . ويلقى نفس الأسئلة .. ويؤدي ذات الرسالة التي كان صاحبه يؤديها حيأً .

هناك تقدم في ثقة أزعجت خصومه . وقال :

— « يا قضاة أثينا ..

« كم كان سلوكي سيبدو سئلاً ، لو
أنني عصيت الله فيما أعتقد أنه يأمرني
به ، فنكصت عن أداء رسالة الفلسفة ،
وتوقفت عن دراسة نفسي ، ودراسة
الناس ، وفررت مما كلفني به خشية
الموت .. وأنا الذي حين أمرني القواد
في « بوتيديا » ، و « دليوم » أن ألزم
موضعى لزمه ، وواجهت الخطر
والموت ..

« أيها الأثينيون :

« إنى أمجدكم وأحبكم . ولكن لأنى
أطيع الله أكثر مما أطيعكم ، فلن أدع
الفلسفة مادمت حياً . سأواصل أداء
رسالتى . سأدنو من كل من يصادفني
فى الطريق وأهيب به قائلاً :

ألا تخجل يا صاح من انكبابك على
طلب الجاه والثروة ، وانصرافك عن
الحق والحكمة .. وعن كل ما يسمو
بروحك ..

«إن من يحارب مخلصاً في سبيل
الحق ، لن يمتد به الأجل إلى حين ،
ومن أجل هذا ، فأننا لا أخاف
الموت .. أجل إنني لا أخافه ،
ولا أعرف طعمه . ولعله شيء جميل .
غير أنني على يقين من أن هجران
واجبي ، شيء قبيح .. ولذا ، فحين
أخير بين الموت الذي يحتمل أن يكون
جميلاً ، وترك الواجب الذي هو من
غير شك قبيح ، فإني لا أتردد في اختيار
الأول فوراً .

«بني آثينا ..

«منذ طفولتي ، يلازمني وحي ..
هو عبارة عن صوت يطوف بي ،
فينهانى عن أداء بعض ما أكون قد

اعتزمت أداءه .. وإن جاز أن أسوق
لكم تشبيهاً مضحكاً ، لقلت إنني ضرب
من الذباب النشيط ، أرسله الله لهذه
الأمة التي هي بمثابة جواد ثقيل
الحركة . ولابد له في حياته من
حافز ..

« أنا ذلك الحافز .. ولقد وجدتم
مني ناقداً منبهاً ، يثابر على فحص
آرائكم ، ويحاول إقناعكم عن حق ،
بأنكم تجهلون بالفعل ، ما تتوهمون
عرفانه ..

« وإن الخير الأعظم لكم ، فهو أن
تركوني وأوصي رسالتي .. أما إذا أردتم
تبرئتي على أن أترك البحث عن الخير ،
وعن الحق ، فسيكون جوابي : أنا
شاكر لكم أيها الأثنين .. ولكنني أوثر
طاعة الله الذي أعتقد أنه ألقى على
كاملى . هذا العباء الجليل » .

وأخيرا ، يُحكم على سocrates بالموت .. وتتهيأ له فرصة الفرار والنجاة . وهنا ، مشهد آخر لابد من وقفة تجاهه .. مشهد نفر من تلامذته ، يجلسون إليه داخل سجنه ، ويخبرونه في جذل ، أنهم أعطوا السجان رشوة وافق بعدها على تهريبه . وأنهم هياوا له أسباب السفر إلى « قسالى » ، حيث يعيش هناك مع رسالته الكبرى .
وكأنما حسبيوا أنهم يزفون إليه بشري .. ! وما كادوا يفرغون من حديثهم ، حتى مضى على طريقته يقند رأيه في آناء ، كأنه معلم في مدرسة . ووقته مقسّع ، وفرصته مواتية .. !

وليس محكوماً عليه بالإعدام ، سيعطى بعد حين قريب كأس السم ليتجرعه ، ويسيغه !!!

— « .. ولكن لماذا أهرب -

يا أقربيطون - من الموت ??
طبعاً ، لأنظفر بالحياة ..

حسن هذا .. وإنْذن فلنبدأ بأن
نعرف ، ما في الحياة .. ؟ »

ثم يقتل حديثه الواقع العقب ليخبرهم أن مجرد الحياة ، أمر لا يعني الرجل العاقل .. وإنما تهمه فقط ، الحياة التي تلتزم الصواب .. فهل الهروب صواب .. ؟؟ ..

— « .. ثم كيف أستطيع
- يا أقريطون - إذا ارتكبت رذيلة
الجبن ، أن أتحدث عن فضيلة
الشجاعة » .. !

ويقنع تلامذته . بل يخجلون ..
وحين يسألونه ، على أي نمط يحب أن يُدفن ؟
يجيبهم :

« على أي نمط تشاءون . إنكم
ستدفنون الجسد وحده .
أما الروح فذاهبة إلى مكان يبعث فيها
السرور .

هناك بين المباركين .. !
لن أمكث بعد مماتي » ..

وفي الميقات المعلوم . يُ جاء له بكأس صغيرة ، تحمل
في ذوبها ، منيته . فيأخذها بيد ثابتة . ويدفعها إلى
فمه .. ثم يتمهل قليلاً ريثما يدعوا « اللهم اجعلها رحلة
مباركة سعيدة » .

ويتجرع السم .
ويموت سocrates .

أو على حد تعبيره هو : يموت جسد سocrates .. !

لماذا بدأنا موضوعنا بهذه البداية الطيبة ..

ومرة أخرى .. ما علاقة سocrates بحديث عن محمد ..

وال المسيح ؟

إن الذين تفتحت بصائرهم على قسمات هذه الحياة التي عرضناها في إيجاز شديد ، لن يجدوا أنفسهم في حاجة إلى سؤال كهذا .

● فسocrates فيلسوف لانبي . وهو يعلن أنه لن يذر الفلسفة ومحاورة العاكفين على أساطير الأولين مادام فيه نفس يتربدد .

● وهو لايسأل الناس على تعليمهم أجراً ، ويرفض كل مثوبة مادية تقدم إليه .

● وهو كفيلسوف ، يهمه أن يعرف .. وأن يجمع معارفه بنفسه ، وبجهده العقلي المتحرر ..

● ثم إنه كان يحمل عقلاً شامخاً وشاهقاً لا يتلقي ، وإنما يناقش .. ولا يقلد ، لكنه يخلق .

● وهو ضد الأحكام الجاهزة ، والأراء المسبقة . ولا يرضي للناس أن يقولوا - ولو للصواب ذاته - سمعنا وأطعنا .. بل يجب عليهم أن يقفوا .. وينظروا .. ويسمعوا .. حتى إذا تبين لهم أنه الحق أخذوه وعانقوه .

● وهو لم يقل للناس : « اعرفوا ربكم » بل قال لهم ، وفي إلحاح دائم ذكي : « اعرفوا أنفسكم » .

سocrates ، إذن ، رجل عقل يستعمل عقله في أوسع نطاق .. ويدعو الناس لاستعمال عقولهم . وإنه ليحترم كل

ماللعقل من حق في المناقشة ، والمعارضة . بل وفي الشك .. ومع هذا ..

● فهو يصفى كثيراً لصوت آخر غير صوت العقل . هذا الذي أسماه « الإشارة الإلهية » أو « الإشارة المقدسة » ، أي أن الفيلسوف الذي جعل العقل مصدر تفكيره .. قد جعل الوحي أو الإلهام الضاغط موضع احترامه وتلبيته .

● وهو أيضاً ، يفسر الحياة تفسيراً دينياً ، فليست دنيانا هذه هي المنتهي .. بل واحة في الطريق . ولن يست نهاية ..

ويفسر الموت بمثل ذلك ، فهو عنده دفن للجسد وحده ، أما الروح فلها الخلود في عالم يسر الصالحين .

● وهو يحسُّ للموت قيامة وبعثاً .. ينهضون من قبورهم ، ليستأنفوا رحلتهم وحياتهم .

الم يقل لأقريطون : « لن امكث بعد مماتي » !؟

● وهو قبل هذا ، يؤمن باللوحة طيبة ، وربوبية قادرة ، تدعو الناس إلى معرفة الحق ، وفعل الخير .

وهكذا ، يتبدى لنا « سocrates » بذاراً جديداً مترعاً بالحياة ، تزرعه السماء في الأرض ، ليؤتي أشهى وأبقى ثمارها .

ويقف الفيلسوف ، هادياً يقرع أجراس الحياة العظيمة ، وسط بشريّة غافلة ، كي تلقى سمعها ووعيها ، إلى الرفدين الصادق الذي أهلت مع هذا الرجل عصوره وأزمانه .

ولسوف يظل العالم ثملاً - في غير غيبة - بعذوبة ذلك اللحن السocratic إلى ماشاء الله.

ولكن ، بعد خمسمائة عام من موت العازف العظيم وسفره ، سيفد إلى الحياة هادِ جليل ، ومبدع فذ ، يمشي الهويينا في دروب فلسطين ، وسهولها .

ثم بعد ستمائة عام أخرى .. يزور الدنيا .. هاد آخر جد عظيم .. يعبر شعاب مكة .. ويصعد في جبالها متاماً وضارعاً .. حتى إذ وجد اليقين الذي يبحث عنه .. وحتى إذا قال له الوحي « قم فأذر » .. نهض في الناس نذيراً وبشيراً ..

ولكن إنسان أورشليم .. وإنسان مكة .. يختلفان عن إنسان أثينا . فالأخير ، يلبس رداء الفلسفة ، ومحمد والمسيح يلبسان رداء الرسالة .

وهنا ، وبعد الحديث القريب الذي سقناه ، نلتقي بالحكمة التي نبحث عنها ، والتي من أجلها وقفنا هذه الوقفة مع سocrates .

فالفيلسوف الذي ترك في الفكر الإنساني كله طابعه الأصيل الفريد ، والذي لايزال مكانه من فلاسفة عالمنا ومفكريهم ، مكان الأستاذ ، والمعلم .. كان يؤمن بالغيب .
يؤمن باله .. وباستئناف الحياة بعد الموت .. وبوحي يتلقاه المصطفون الآخيار عن الروح الأكبر المشع في هذه الأكونان العظيمة .

* * *

صحيح أنه حارب الآلهة . ولكنه لم يحارب الإيمان الذكي . والآلهة الذين حاربهم هم أولئك المتربيون فوق جبل « أولمب » يتعاركون ، ويتبادلون كل ما يتداوله صغار الناس من أحقاد ، ومؤامرات ، ومكاييد .. !

شهر « سocrates » بهذا النوع من الآلهة ، وبهذا الطراز من الإيمان . واحتفظ بإيمان ذكي باللوحة طيبة عظيمة . وفي آى العصور مارس الفيلسوف الكبير المتمرد إيمانه ذاك .. »

في أعظم عصور العقل السالفة ، معرفة وإشراقاً . العصر الذي استطاع العقل الإنساني خلاله - ومن غير أن تكون معه مختبرات وأجهزة - أن يحسّ حركة الأرض . وكرويتها . ويستشرف داخل الذرات التي تبدو ضئيلة تافهة . شموساً هائلة وطاقات مذهلة .

وإذن ، فعندما يجيء بعد رحيل سocrates بزمن يطول أو يقصر من يدعوا الناس للإيمان بالغيب ، فإن واجبهم أن يقفوا .. وينظروا . ويسمعوا

أجل ، لا أقل يومئذ ، من أن يسألوا أنفسهم .
لماذا لا يكون هذا حقاً .

الم يحدثنا بمثله من قبل . رجل خارق الذكاء . صادق الخلق . كبير الإيمان بالعقل ، وبالمنطق . شديد الولع بالحوار . وبالشك ، اسمه : سocrates ؟

أجل . لماذا لا يكون حقاً ؟

او على الأقل ، لماذا لانصفى إلى ما يقولون ..

صحيح أن سقراطًا ، حدثنا بأشياء ، اكتشفنا فيما بعد خطأها .. بيد أنها كانت من تلك التفصيلات التي تشبه الافتراضات التي يتوسل بها العلماء لاكتشاف نظرياتهم حتى إذا برزت النظرية كحقيقة حية لم يعد لتلك الافتراضات قيمة ، ولم تؤثر « وهميتها » في قيمة النظرية وصدقها . على أن جميع القيم التي والاها سقراط ، وآمن بها وبشر .. كالحق ، والخير ، والجمال .. لاتزال ، وستظل خالدة ، صادقة ، شامخة ، لايزيدها العلم إلا أناً وقوة .

لَمْ لَا يكون الإيمان كذلك ، سيماناً والـ م لم يستطع أن إلى يقين بذريضه ..

عد .. ففي سقراط ، التقى العقل ، والوحى .

سقراط : بشرت الفلسفة بالدين .



■ الفصل الثاني ■

الهداية ترسل سفائنها

أكان سocrates وحده يرفع لواء الخير
والمعروفة ويقرع الأجراس؟

كلا .. ففى أقطار شتى من الأرض ،
كانت الهداية ترسل سفائنها ... وفي الأفق
العالى البعيد ، كانت الشرع تتعانق ،
وفي عباب الحياة الإنسانية ، كانت السفن
تمضى ماخرة ، هادرة ، تحمل للناس
رسالات الهدى ، وفلسفات . الخير .
والصلاح .

فَقَبْلَ «سقراط» بمئات كثيرة من السنين؛ كانت هناك في مصر القديمة، وفي آشور، وفي بابل، محاولات مُثابرة لاستجلاء الرُّشد والخير.

وكان «أختناتون» في مصر القديمة يعلن أن الإله واحد.. ويقاوم تعدد الآلهة وعبادة الأوثان. ويناجي إلهه الواحد - أتون - بقوله:

(أنت جميل، وعظيم، متَّلِّىء،
ومُشرق فوق كل أرض. وأشعتك
تحيط بالأَرْضين حتى نهاية جميع
مخلوقاتك).

وكان الفكر المصري القديم يملأ أرضه وبلاذه هتافاً بقيم الحق والخير، داعياً للعدل، والاستقامة، والمساواة، والرحمة، ومبشراً بالخلود في الدار الآخرة.

وكان ينادي الناس باسم الإله، فيقول:

«لقد صنعتُ الرياح الأربع، لكي
يتنفس منها كل إنسان كزميله.

«لقد صنعتُ مياه الفيضان العظيمة، لكي يكون للفقير فيها حق كالعظيم..

«لقد صنعتُ كل إنسان مثل غيره من الناس ..»

وكان يقول لهم :

(إن الصدق جميل ، وقيمه خالدة)



(لا تتكلمن مع إنسان كذباً ، فذلك

ما يمقته الله ..)

(ولا تفصلنَّ قلبك عن لسانك ،

حتى تكون كل طرِيق ناجحة) .



وقبل سقراط بثلاثمائة عام ، وتحت سفوح الهملايا في
شمال البنغال ، كان فتى وسيم الطلعة ، ريان الشباب .
يرفل في كل ماتحفل به الدنيا من مناعم ، ومطاعم ،
ومباحج ، ومسرات ... وذات يوم .. وهو يمتطي صهوة
جواده ، ويزاول نزهته اليومية ، أقحم القدر على طريقه
بعض نماذج من البشر ، ينطوى أصحابها على أسى مُمضٍ
وفاجع .. !

ولكانما كان هذا المشهد نداء الغيب لـ « جوتاما »
أو « بودا » كما سيدعى فيما بعد .

ففي أمسية ذلك اليوم ، انفذ في هدوء وعزز ، ما أسرره
في نفسه ضحي .. وفي بهجة الليل ، انساب كالأنفاس
الوادعة من فراشه وقصره ودنياه الباذخة ، وخرج ومعه
خادمه ، حتى إذا بلغا شاطئ النهر ، قطع « بودا »

ذوئبه .. ونضا عنه ثيابه المترفة ، وما يتحلى به من لؤلؤ
وذهب وأعطالها جميعاً خادمه ، وأمره بالعودة ، بينما
اتخذ سبيله إلى مناسك العابدين ، شمال جبال
« الفندية » .

وهناك شق على نفسه ، وكلفها من العبادة ما يطيق ،
ومالا يطيق ، وأسلمها لصيام مرير ، وزهادة بالغة .
بيد أنه لم يلبث أن اتهم نفسه بقتل نفسه .. ومن ثم ،
فقد شرع يعتدل في نسكه ، وفي إخباته .

وذات يوم .. رن في روعه نفس الصوت .. الإشارة
الإلهية .. أو الوحي .. أو الإلهام .. سموه ما شئتم ..
المهم أنه نداء يحس أصحابه أنه قادم من فوق .. وراء
ما يحسنون وما يبصرون .

وأصفى « بودا » ثم أصفى ، وأصفى .
وأخيراً ، عاد يبث في الناس حكمته ورؤاه .
فماذا كانت هذه الحكمة ؟
هي ذى .. ولا تزيد :

— « أيها الناس ، انبذوا الأنانية » .

إن « بودا » يهتف بالإيثار وخدمة الآخرين ، وهو
لا يعتبر نفسه مسؤولاً عن أن يعرف كثيراً عن سر الإله ..
بل هو مسئول عن أن يعرف كل شيء عن بؤس
الإنسان !!!

وهو يدعو الناس ، ليبذوا أطماعهم ، وأنانيتهم ، كي
يجدوا « النرفانا » في انتظارهم .

والنرفانا ، عند بوذا هي حالة السمو والصفاء التي يجدها ويبلغها الذين يغادرون أنفسهم سعيًا وراء الحكمة والحق ، والذين يتفوقون على آنانيتهم ويبدلون من ذوات أنفسهم في الخير العام .

— « إنكم تجعلون من ذواتكم سجنًا ضيقة مظلمة قاتلة ، حين تعكفون على أنفسكم وحدها ، وتعيشون لأنفسكم وحدها .

وإني إذ أدعوكم إلى « النرفانا » لأدعوكم في نفس اللحظة ، إلى أن تحطموا عنكم أغلالكم - وتغادروا سجونكم التي تحتويكم داخل ظلماتها .

عاونوا الآخرين ، وابسطوا إليهم قلوبكم بالعودة ، وأيديكم بالإيثار وبالرحمة .

بمثل هذا ، مضى بوذا يبشر ، ويدعو ، متسللاً بالمعرفة ، وبالأمل مبشرًا المصغرين إليه ببلوغ ذرٍ عالمهم المنشود .. عالم النرفانا .

■ □ ■

وفي نفس الزمان .. كان هناك في الصين رائد جليل
يقول :

« حياتي هي صلاتي » .

كم هي فاتنة وقيمة ، هذه العبارة .. وإنها لتدلنا من
فورها على موضوع حياة قائلها ، ودعوته .

إنه « كنفسيوس » .. حصر جهده في تجديد حياة
الناس ، وضبط سلوكهم وفق ما يختاره لهم من عادات ،
وأعراف ، وتقاليد .

ولقد هجر وظيفته ، إلى « دار الحكم » ، التي أنشأها
في ولاية « لو » .

وظل ينضج فكره ، ويجمع نفسه ، ويحاول اكتشاف
دوره ، حتى أفضى إلى ما يريد .

وهناك خرج إلى الناس بتعاليم ، كل غرضها ، خلق
الرجل « الجنتلمن » .

الرجل الأناني النظيف ، في تصرفاته ، وفي حركاته ..
في طريقة أكله ، وفي طريقة سيره . ونومه ، وفي طريقة
حديثه .. وفي حياته كلها .

وحين يزخر الوطن بهذا الطراز من أبنائه . يصير قادرًا
على صبغ نفسه بالصبغة الجيدة التي يريدها له
« كنفسيوس » .

وحين تنجح التجربة داخل الصين ، تصدر إلى
خارجها .. وهكذا يقر « كنفسيوس » عيناً ويهداً بالأ ، تجاه

فوضى السلوك والنظم التي تؤرقه كثيراً ، والتي قال عنها ذات مرة :

« إن هذه الفوضى التي تعم الدنيا ، هي الشيء الذي يحتاج إلى جهودي ».

كذلك كان هناك أنبياء الشرق الأدنى .. يجوبون القفار والنرجوع ، هاتفيين بالصلوة ، وبالببر ، وبالتضحيّة .. منقضين بغضبهم الصاعق على الاستغلال واحتقار الثروات ..

« ... من أجل أنكم تدوسون المسكين .. وتأخذون منه هدية قمح .. بنitem بيوتاً من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها . وغرستم كرومأ شهية ولا تشربون منها » .

« ويل للمستريحين في صهيون .. أنتم المضطجعون على أسرة من العاج .. والمتمددون على الفرش ، والاكلون خرافاً من الغنم ، وعجولاً من وسط الصيرة .. الهادون مع صوت الرباب ، الشاربون من كثوس الخمر .. »

«كرهت أعيادكم ، حتى تدعوا
الحق يجري كالمياه ، والبر يجري
كنهر دائم .. ؟»

ولايقاد هذا الهدى يهدا ويكتف ، حتى يجلجل فى
الأفق ، وبين الروابى ، وفوق السفوح ، نذير جديد يهتف
به « إشعيا » :

« .. مالكم تسحقون شعبي ،
وتطحرون وجوه البائسين .. ؟
« ويل للذين يصلون بيتاً بيتاً ..
ويقرنون حقلأ بحفل ، حتى لم يبق
موضع ، فصرتم تسكونون وحدكم فى
شطر الأرض .. !

« ويل للذين يقضون أقضية
الباطل ، وللكتبة الذين يسجلون
زوراً ، ليصدوا الضعفاء عن الحكم ،
ويسلبوا حق بائسى شعبي .. لتكون
الأرامل غنيمتهم ، وينهبوا الأيتام .. !
« يقول رب :

« اغتسلوا .. تنقوا .. كفوا عن
 فعل الشر .. تعلموا فعل الخير ،

اطلبوا الحق ، أنصفوها ، اقضوا
للبيتيم ، حاموا عن الأرملة » .

ثم يلقى نبوءة وأملاً فيقول .

« ها هي ذي العذارء ، تحبل وتلد ،
وتعطى ابنًا ، يحل فيه روح رب ..
روح الحكمة والفهم .. روح المشورة
والقوة .. روح المعرفة ومخافته
الرب ..

« يقضى بالعدل للمساكين ، ويحكم
بالإنصاف لبائس الأرض .

« يسكن الذئب مع الخروف ،
ويربض مع الماعز ، يطبعون سيوفهم
سککاً ، ورمادهم مناجل ..

« لا ترفع أمة على أمة سيفاً ،
ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » .. !
أى إنسان كان إشعيا .. ؟

وما هذه المودة الدافئة العميقية التي
ي肯ّها للعالم وللسالم .. ؟ !

* * *

هل نطعم نحن اليوم ، بل وبعد
عشرات السنين ومئاتها ، في أكثر من
هذا .. ؟

أن تتحول السيف إلى عُملة .
وتتحول الرماح إلى مناجل ..
وبعبارة واحدة ، تتحول ميزانيات
الحروب وسلح الموت إلى تعمير ،
وانعاش ، ورخاء وسلام دائم مقيم .
هكذا ألت الحياة سمعها لرواد من
طراز لا تألفه نحن اليوم في أجيالنا ..
ولعل هذا مما يباعد أحياناً ، ويفصل
بيننا وبينهم بخطوط وهمية مُخادعة .
لكن حين نستأنس ، ونخلص في
محاولتنا الفهم والمعرفة ، نجد الدور
الجليل الذي قاموا به ينادينا ، وينادي
فينا كل ما نملك من قدرة على الاحترام
والتبجيل .

إننا إذ نصغى اليوم لرجال من أمثال
هيجل ، واسبينوزا ، وابن رشد ،

والفارابي ، وسانتا يانا ، وابن سينا ،
وشكسبير ، والمعرى ، وكوبرنيكس ،
وجاليليو ، ونيوتون . . فإنما نفعل ذلك
إكباراً لما أسلوه لعقولنا ، ولو جداناً
من علم ومن نور . .

وهذا جميل . . ولكن ليس جميلاً
أن يفتتنا روح العصر الذى يجح عن
الغيب إلى الشهادة ، وعن النبوة إلى
التجربة . ليس غير !!

ليس جميلاً أن يصرفنا روح العصر
هذا ، عن أن نبذل احتراماً صادقاً
ونصغي فى تدبُّر وتعلم لأولئك الرواد
الأوائل الذين أخذوا على كواهلهم
المستبسلة ، تطوير الحياة الإنسانية عن
طريق تطوير العقل الإنسانى وبث رؤى
الخير والشجاعة والصلاح فى الضمير
البشرى .

ولقد يكون بعضهم سلك شعاباً يشق
 علينا اليوم أن نسير فيها ، لكنهم فى

الإطار العام لدعواتهم ومناهجهم ، لم يكونوا إلا رواداً أفاداً ، ورسلًا صادقين كباراً .

ومن جماع هتافاتهم الرشيدة المتبعة من أوطانهم المتباude .. خططت تُخوم وطن واحد للفضيلة وللحق ، وأيضاً للعالم الواحد الذي سيتهنى حتماً إلى الفضيلة وإلى الحق فوق صعيد ذلك الوطن الواحد الكبير الظاهر .

لقد كانوا - أثابهم الله عنا خيراً - ذوى فضل كبير في جمع البشرية بذاتها وفي لقائها بواجباتها التي أفضت ممارستها إلى ما ظفرت به فيما بعد من تفوق عقلي ، ومن تفوق أخلاقي .

وإنا لنسأل :

أهؤلاء الذين لم يؤخذ على سلوكهم
شبهة .. ولم تُحْمِّل عقولهم
ظنة ..

الذين عاشوا وتألموا ، وكابدوا
الصعب . وواجهوا الخطر ، من أجل
الناس ، لا من أجل دنيا يصيّبونها ،
ولا منفعة ينالونها .. !!

والذين خرجوا من ديارهم ، ومن
أنفسهم ، ومن أموالهم .. وتبتلوا
لدعواتهم ، وأخلصوا أصدق الإخلاص
لواجباتهم .. !!

هل كانوا .. وهل كان كفاحهم
العظيم .. وأيامهم العاملة .. ورؤاهم
المضيئة ..

كل ذلك .. أكان هذراً .. أكان
لغواً ، وباطلاً .. ??
أبداً .. أبداً .. أبداً ..

وإنه لمفروض علينا من أنفسنا
السوية ، أن نحترم كفاحهم النبيل
الجليل ، ونصغي للحكمة الحلوة
النافعة التي لاتزال تشع بها أمهات
تعاليمهم .. والتي انطلقت ذات يوم

لأول مرة من هناك .. من أثينا ،
والصين والهند ، وأرض الشام .. ومن
قبل .. من هنا .. من مصر القديمة
حيث صيغت على نسق عال وثيق ،
فلسفات التوحيد ، والبعث ،
والخلود ، وحيث رسمت للأخلاق ،
وللسلوك مناهج قوية ، بقدر ما هي
مستقيمة .

■ □ ■

والآن ، اقتربوا .
في خشوع ، وتقوى .
إن الباب الكبير يُفتح . ليخرج منه
إلينا .. إلى البشر جميعاً . أخوان
حميدان .. جاءا يُلْحِضان دعوة الخير
كلها . ويعطيانها في إطارها الديني .
تعبيرها النهائي ..
انظروا :
ها هما - في ضياء باهر - قادمان .
عيسي .. ومحمد .

ابن الإنسان . .
ورحمة الله للعالمين . . !



أما «عيسى» فسيلخص لنا كل
فلسفات المحبة ، ودياناتها .
ورؤاها . . ثم يمنحنا إياها في تركيز
حاسم . . في دعوة ميسرة . . في
سلوك وديع .

وأما «محمد» فسينفض عن الإنسان
آخر أغلال التبعية ، والخضوع ،
ويعلن في شمول واعٍ حقيقة التوحيد .
وهكذا . تتلقى البشرية منهما ، آخر
دروس إعدادها ، وتسلّم وثيقة
رُشدها ، لتمضي بعد هذا في طريق
الحياة شجاعة مبصراً .

تجربة الوحي في قلبها ، ونور العقل
في رأسها .

وأ والله من قبل . . ومن بعد . . يعينها
ويهديها .



■ الفصل الثالث ■

مَعَ

عَلَى طَرِيقِ الرَّبِّ

في حجر أم بارة ، بدأ المسيح ، كما بدأ
محمد ، أولى ساعات الحياة .. وفي شباب
متأمل ، وَرِع ، طالع كل منها رؤى
مستقبله ، واستجلى غوامض سُبحاته ..

● وكما تلقى «المسيح» بشراء الحافزة من رجل صالح ، حين قال له وعينه عليه لا تَرِيم .
«يجىء من هو أقوى مني» !

● كذلك ، تلقى «محمد» بشراء الحافزة من رجل صالح ، حين قال له وهو مُخْنَغ :
«هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى» .

● وفي قرى ظالمة لنفسها ، صاحبة شهواتها ، سار كل منها عقا نقيا .

● وأمام مكاييد اليهودية المتآمرة الغادرة ، وقف الرسولان يتحديان رجسها ، ويکابدان بأسها . !

● وأريد للمسيح أن تنتهي حياته الطاهرة على صورة تشبع الأحقاد الملعونة الملتاثلة ، لخraf إسرائيل الضالة .. !

وأريد للرسول ، أن تنتهي حياته أيضاً بسبب من غدر اليهودية المتآمرة ، فدست امرأة يهودية السم في طعامه !

● وقال «المسيح» ، حين أحاط به لؤم الكهنة وكيد الكائدين :

«اغفر لهم يا أبا إسحاق ، لأنهم لا يعلمون ما يفعلون» .

● وقال «الرسول» ، ودمه يتفجر تحت قسوة الحجارة التي يُقذف بها من كل جانب :

« اللهم اغفر لقومي فانهم
لا يعلمون » .

أكانت هذه المشابه عفو الصدفة ، أم هي ثمرة شيء
يشبه القانون العام يُصنع على شاكلته هذا الطراز الجليل
من الهداة .. ؟!

إننا نريد أن نقترب من محمد ، ومن المسيح أخيه ،
ونريد أن نبصر الرؤى الصحيحة التي رأيا بها مستقبل
الإنسان ، ومستقبل الحياة . فانهما في هذا لنظيران مثلما
هما نظيران في شدة ولائهما للإنسان وللحياة .
والآن ، علينا أن نعرف ، ماذا كانت البيئة التي تنتظر
كلاً منهما ، وتتعجله المجيء .. عسى هذا أن يهدينا إلى
حاجة عصرنا لهما ، ولروح الخير الذي تعبا في بثه
وإذاعته .



فلسطين ، أرض تحمل شعباً متعدد القسمات ، يعاني
أهلها حقداً كثيراً على الغزاة الذين يسومونهم سوء
العذاب .. وهم لهذا ، يهربون من الواقع المممض إلى رقى
غَدٍ مرقوب ، حيث « يجيء ملك اليهود ومخلصهم » !!
إن جنود روما ، تشوّى الأبشمار بسياط كاوية ،
والخوذات اللامعة المتکبرة تقذف بالرعب في أفئدة
القطيع .. والضرائب الفادحة المبهظة تجبي من ذوى
الخصاصة والكادحين ، لكي ترفع إلى السيد الماجد
، قيسر ، المتربيع على عرشه البازخ في « روما » !!

والجاثون بين يدي هذا الواقع الاليم ، أبناء شعب
تشرد في الأرض وفي القرون ، وعاني من التفرق والمحق ،
ما جعله يتلمس في شوق بالغ قدوم من يخلصه .
كذلك عانى من تعدد الأسياد ، وتعدد الغرابة الذين
أنقضوا ظهره ، مما ما جعله يهفو إلى عقيدة التوحيد ،
ويهتف بها .

ترى ، إن جاءه مخلصه يؤمن به ، أم يعد له صليباً
كبيرا .. !

وإن دعى إلى عبادة الله الأحد ، يطيع ؟ ! أم يُشرك به
الذهب ، والمال .. !

لم تكن تلك أحاسيس اليهود القابعين في بعض
فلسطين وحدهم .. بل والمبدورين في بقاع كثيرة من
الأرض .

هناك في إسبانيا ، وفي إفريقيا ، وفي جوانب البحر
الأبيض المتوسط وفي جنوب روسيا ، وبعض بلاد
الإمبراطورية الرومانية .

غير أن المقيمين منهم في « أورشليم » وما حولها كانوا
أكثر معاناة للآلام وأكثر تعلقاً بالأمل . وأيضاً أكثر اضطراباً
وببلة وإياباً .

كان « المجتمع » هناك - إن جاز هذا التعبير - نهباً
لتقاليد خالطها الكثير من العفن ، والتفاق ، والنفعية ..
ما جعل الأنبياء يكترون وتكتل صيحاتهم المنذرة ، ترجمُ
جو السماء .

كان اليهود الفريسيون يقفون حراساً عندين على طقوس شكلية خالية من الروح ، متجاهلين لباب الشريعة ، وصميمها .

فالسبت - مثلا - مقدسة فيه الراحة ، بل البطالة ، حتى لقد ترك أباوهم ذات يوم « أورشليم » تسقط في يد أحد الغزاة السلوقيين لأنه هاجمها يوم السبت ، وهم يوم السبت لا يعملون ، حتى حين يكون هذا العمل دفاعاً واجباً عن حياتهم وأنفسهم .. !!

وهم أيضا - الفريسيون - يهتمون بأعظم الاهتمام بغسل الأيدي قبل الطعام ، لا من أجل النظافة ، بل لمجرد أنه طقس ديني .. ثم لا يهتمون بما ترى هذا الطعام ، حلالاً كان أو حراماً !!

وطهارة القلوب لا تناول من اهتمامهم معشار ما تناوله طهارة الأيدي ، وعما قليل سنبصر خبث صدورهم وطواباتهم وهم يحاربون المسيح ويفتنون في الكيد له . واليهود هناك ، يمنعون أنفسهم من الامتياز ما يجعلهم فوق البشر ، ويرون أنفسهم « شعب الله المختار » ! ويذعمون أن الله قد وعد آباهم « إبراهيم » ، ملكاً عظيماً ، يحكمون من خلاله جميع الأرض وجميع من عليها !!

ثم هم يعيشون في دائرة مغلقة ، منطوية ، متزمته . وهم في أورشليم يشكلون « مصرفًا » جشعًا ، يؤله المال ، ويحتكر الثروة ، ويضرب الفقراء والمعوزين بسياط الاستغلال ، والربا ، والبغى . لا يعرفون عن المقدسات إلا أنها السبيل لحظوظ أوفي من الكشب

الحرام . وإنهم ليبلغون في

غورهم الصفيق الحد الذى يقولون عنده « إن الله فقير ،
ونحن أغنياء » !!

وهم جماعة تفكر بمخاوفها . وبحرصها . وبأنانيتها ،
فيجيء تفكيرها من الانحراف . والقسوة . بحيث يبدو
 أصحابه وكأنهم ليسوا على الاطلاق بشرا .
لقد قتلوا أنبياءهم ، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى
أنفسهم استكبروا ففريقاً كذبوا . وفريقاً يقتلون !!!
وإنهم لأساتذة في فن الجريمة .. وفي أعناقهم وأيديهم
يُقع كبيرة من دم « زكريا » ومن دم « يحيى » ومن دماء
راكية لأنبياء وشهداء كثيرين !
وهم - وان تظاهروا بالغيرة على الشريعة - لا يضعون
 شيئاً من حقائقها موضع التنفيذ .

والذى يعنيهم من الدين كله . شيء واحد هو ملكهم
المنتظر حيث تجد نزواتهم الجامحة في السيطرة وفي
الاقتناء فرصة سعيدة .

وإذا كانوا متسفوفين بمجيء « المخلص » ، فليس لكى
يخلاصهم من خطاياتهم ، ويهدى إلى الله نفوسهم
وسلوکهم . وإنما ليضاعف الثروة في جيوبهم !!
من أجل هذا ، رحبا بال المسيح بعض الوقت فور
ظهوره ، فلما تبين لهم أنه لن يكون « السمسار » الذي
يسلمهم الصفة المنتظرة ، والملك المرقوم هبوا لعداوه
وتواصوا على حربه !

وأخيراً ، فإن معظم القيم السامية - إن لم يكن

جميعها - قد اختفى من هذه البيئة وكان لل Kahn فضل كبير
في هذا ..

وفي وحل الجشع ، وإلى حضيض الجريمة أخلد
الناس الذين كانوا يومئذ هناك .

ولو أن قوة تتمتع بما تشاء من ذكاء ومقدرة ، أرادت أن
تتقدم لإصلاح هذه الجماعة الضالة ، والتي لم تكن رغم
مساواتها الكثيرة . إلا نموذجاً لكثير من سكان العالم
أيامئذ ، فماذا كانت صانعة ؟

● تنشيء الجامعات ، وتملؤها بـ الأساتذة والمربين .
لتلقن في مدرجاتها هذه الخراف الضالة آسلوب الحياة
الفاصلة ؟

● تتوسل بأجهزة الإذاعة ، والصحافة ، والنشر .
لم يكن شيء من ذلك قد وجد بعد .

● إذن تصبهم في قوالب سحرية ، يدخل أحدهم من
أعلاها شريراً فاسداً ، ويهبط من أدناها قديساً طاهراً ؟
ولا هذا ..

لقد اصطنعت السماء يومئذ أنجع الوسائل وأجداها .
فكان المعلمون الصالحون الذين يبيّنون لهم الخير
والشر ، ويميزون الخبيث من الطيب ، ويقودونهم
بكلاماتهم الحازمة الصادقة ، وبسلوكهم الفاضل الباهر إلى
المحبة والفضيلة ، ويُشكلون المجتمع على صورة تمنحه
قابلية التطور الصالح ، والتقدم السديد .

* * *

هذا كان عمل الأنبياء والمرسلين ، قبل أن تختالطه
إضافات الأتباع ، وتحريف المغرضين .
وهذا ما سيحاوله المسيح حين يجيء .



ولكن ، قبل أن نشهد مجئه ، يحسن أن تلقى نظرة أخرى على العالم كله ، فليس يكفي أن نعرف ماذا كانت « أورشليم » قبيل ظهوره ، دون أن نعرف ماذا كانت كذلك ، وفي نفس الزمان ، طبيعة المرحلة التاريخية للعالم كله . فاليسوع ، ومثله الرسول ، لم يجيئا ليوقدا شموعهما في أورشليم وفي مكة وحدهما ، بل جاءا ليوقدا شموعهما للعالم كله .

ولقد كانوا على وجدان بهذه الحقيقة
قال المسيح :

« جئت لأخلص العالم » .

وقال الرسول :

« إن الله أرسلني للناس كافة ..
وأرسلني رحمة للعالمين » .

ولقد حدث هذا فعلاً ولم تبق دعوتهما داخل القرى الصغيرة ، بل تفتحت لها أبواب القارات الكبيرة ، ولا تزال الديانتان ، المسيحية والإسلام ، تغمران الأرض . وهذا شيء طبيعي فلأفكار قوة على النفاذ والزحف أكثر مما للجيوش نفسها .. لاسيما تلك الأفكار الصادقة

الكبيرة التي تحمل من آمانى البشر ، وتحقق من احتياجاتهم ما هم إليه مشوقون .

فما الوضع الذى كان يسود العالم يومذاك ؟
كان الشرق الأقصى يمارس فلسفته الخاصة ، وتطور النظم فى بلاده تطوراً عنيفاً تارة ، وهادئاً تارة أخرى .
ولكن ظاهرة تثير الانتباه حقاً ، كانت أيامئذ تعلن عن نفسها فى ذلك الركن الأقصى من الأرض .

ففى الصين التى كانت تعيش وراء سورها البالغ طوله ألفاً وخمسمائة ميل .. والتى كانت قد وحدت ولاياتها الكثيرة المتفرقة تحت لواء حكومة مركزية واحدة .
الصين تلك ، كانت تمارس تجربة هائلة بداعها الإمبراطور « وو - دى » ثم أعاد تطبيقها بعد نكسة طارئة الإمبراطور « وانج مانج » .

وتنتظم هذه التجربة : إلغاء الرق وتأميم الأرض الزراعية تأميماً كاملاً شاملأ ، وتأميم الملح ، وال الحديد والمناجم ، وثبتت الأسعار !
أما فى الشرق الأدنى ، وأوروبا ، فقد كان هناك استعمار وبيل ، ورق بشع !

فالإمبراطورية الرومانية ، على الرغم من محنتها ، وتمزقاتها الداخلية ، قابضة على آعناق رعاياها ، فى بلاد غاله ، حيث شمالى إيطاليا ، وجنوبى فرنسا ، وفي بريطانيا ، وفي النمسا ، والمجر ، ورومانيا ، ويوغسلافيا ، وبلغاريا .

وفي إسبانيا . وشمال إفريقيا ..
 وفي مصر . والشام ..
 وفي أقطار أخرى من الأرض . سيطرت عليها .
 وكان سلوك روما مع الخاضعين لها عجيبا . فهى تصدر
 إليهم عبادة قيصر . وتأخذ منهم ارزاقهم . وما تنتج
 بلادهم من ثروة وخير . !!
 ولا بأس لدى روما أن تسمح لبعض المقاطعات بإرسال
 ممثليز لها في مجلس الشيوخ الرومانى ، كما حدث حين
 سمحت بهذا لبعض من أشراف فرنسا ..
 تماما . كما تفعل فرنسا اليوم مع الجزائر إذ تعتبرها
 مقاطعة فرنسية نظير التصديق عليها بـاعطانها حق التمثيل
 في جمعيتها الوطنية^(١) !!
 ولم يكن الاستعمار الرومانى ممثلا في جيوش « روما »
 وحدها .. بل كان يؤازر القوة والسلاح . فريق من
 الاحتكاريين بين العتاة .
 فقبل ميلاد المسيح بستة وأربعين عاما . لا غير . كان
 للاحتكار الرومانى في الأندلس وحدها . ثلاثة مصرف .
 تنزع من إسبانيا ذهبها . وقصديرها . ونحاسها .
 وفضتها . وحديدها .
 كما كان الاحتياط الرومانى . يعاونه الاستعمار الممثل
 في الحكومة والجيش . يسيطر عن طريق قادس على

(١) كتب هذا قبل أن تظفر الجزائر باستغلالها

تجارة المحيط الأطلسي مع غربى أفريقية ، وفرنسا ،
وبريطانيا .

وفي مراحل مختلفة من سيطرة « روما » كان استعمارها
يتسم بقسوة لافحة غليظة .

فمثلا ، كان الرومان يصطادون أهل « كورسكا »
بالكلاب ، ليبيعوهم عبیدا .. !

وكانت الضرائب ، تفرض على الأرض ، وعلى الأملك ،
وعلى الحيوانات ، وعلى العبيد .. !

صحيح أن الاستعمار الروماني ، كان ينشد العمران ،
ويقيم المشاريع العظيمة في كثير من مستعمراته تلك ..
ولكنه كان يفعل هذا ، ليزداد دخله منها .. أى أنه كان
يُسْمِن البقرة ، لتدرّ له مزيداً من الحليب .. !

ففي شمالي أفريقيا - مثلا - أقام السدود العالية
لاختزان الزائد من المياه .. وغرس أشجار الفاكهة
والزيتون ، حتى قيل إن المسافر كان يقطع الطريق من
طرابلس إلى طنجة تحت ظلال أشجار الزيتون .. !!!
ولكن لمن كانت هذه الخيرات تُجْبَى وتحمل ..؟؟
لسادة روما وشعبها ..

أما أصحاب البلاد الحقيقيون ، ف مجرد فَعْلة وعبيد .. !
ولقد أراد « أغسطس قيصر » ذات يوم أن يكفىء بعض
ضباطه وجنوده على إخلاصهم له فأقطع لهم « قرطاجنة »
كلها .. وعاشوا هناك سادة وآشرافاً .. بينما تحول أهلها
طبقة دنيا من الرقيق ..



كانت فلسطين ، إحدى مستعمرات هذه الإمبراطورية ، يقطنها مليونان ونصف مليون من الناس ، يعيش الوثنيون منهم في مدنها الساحلية .. ويتركز اليهود في المدن الداخلية .. ويعانى شعبها . لا سيما اليهود ، نزاعاً عنصرياً ، وأضطراباً سياسياً .

فبين أهل يهودا ، والسامريين . وبين الصدوقين ، والفريسين ، عداوات دائمة الاستئثار .. ولكن مقتهم لروما يجمع بين قلوبهم المشتتة .

وعلى صفحة هذه البلاد التي سيرفع المسيح فيها صوته بعد قليل ، تتعكس مساوىء الاستعمار الروماني وسلوكيه .

فالاستبداد السياسي ، رجيم ، حتى إنه في معركة واحدة في إبان شباب المسيح ، أى قبل جهره بدعوه ، قاد « قارس » حاكم سوريا الروماني حملة تأديبية على بخض مدن فلسطين ، فهدم مئات البلدان ، وصلب ألفين من سكانها ، وباع ثلاثة ألفاً في أسواق الرقيق .. !! ومن هنا توجهت أمال كثيرين ، في مجىء مسيح مخلص ملك يؤسس مملكة مستقلة ، تدفع ضغط روما وتأسلطها ..

والظلم الاقتصادي جاثم يومئذ ، وقبلئذ .. فالضرائب فادحة ، وجباياتها لحساب الرومان لا يرحمون ، وكهنة اليهود ، وتجارهم لا يقلون عن الآخرين جشعًا وبغيًا . ومن هنا ، توجهت أمال قوم آخرين في المسيح يلغى

التجارة ، والملكية الفردية ، ويحقق مساواة كاملة بين
الناس .. !!

كان أصحاب هذا الأمل ، جماعة تسمى « الأسيئنة »
أو « الآزيون » .

كان أعضاؤها يعملون في مزرعة جماعية ، غربى البحر
الميت .. ويجمعون محاصيلها ، وكل مكاسبهم في بيت مال
مشترك .. ومحظور على أيٍ منهم أن يمتلك لنفسه بيته ،
أو فراشأ ..

وكانوا يؤمنون بالسلام ، ويطردون من صفوفهم كل من
يصنع ، أو يساهم في صنع شيء من أدوات الحرب .. !
ولقد حدث لهم - كما يحكى الكاهن يوسفوس - في
تاريه ، وكما ينقل عنه ديورانت في قصة الحضارة - أن
عذبوا ، وحرقوا ، وقطعت أجسامهم . ليتخلوا عن
عقيدتهم وسلوکهم ، فآبوا ، وجادوا بأرواحهم
مبتهجين .. !!

. هذا رسم بياني - الموقف كله ، في العالم الذي تسود
معظمه الأنانية من جانب ، والمسكينة من جانب آخر ..
وفي الأرض التي سيقدر لها أن تستقبل المسيح القادم .
ترى . ماذا سيصنع به يهودها .. الذين طالما
انتظروه .. !؟



في هذه الدنيا التي لمحناها ، شهد « بيت لحم » ذات
صباح نضير مولد طفل .

لم يكن أحد الذين شهدوا ميلاده ، يقدر على استجلاء المستقبل العظيم لهذا الوليد النائم في مهِّ مُفناه في البساطة .

ومع هذا ، فلن يغيب طويلاً شروق هذا المستقبل ، ولسوف يكبر الطفل ، ويشبّ وتهاجر به أمه خوفاً عليه ، ثم يعود فيستمع ليوحنا المعمدان ، ويُلْقَفُ منه الشرارة التي ستطلق قواه العارمة من مَكَامِنَها ، ويمضي هادراً ، جيشاً . يحدث الناس في دُعَةٍ وحلم ماداموا يصغون إليه وُدُّعاء مسالمين .

ثم يجلجل فيهم كالنذير - يا أولاد الأفاسى - حين يلمح في عيونهم الماكرة نوايا الغدر والكيد .

ولسوف تبدأ المسيحية - في تقديرنا - من ساعة اللقاء العظيم بين « يوحنا » ، و « المسيح »^(١) .

فمن المكان الذي شهد ذلك اللقاء خرجت القافلة أول ما خرجت إلى بلاد الناصريين . ثم إلى ما حولها ، ثم إلى روما الجاثية في ابتهال ضارع ، ثم إلى أقطار شتى في الدنيا ، والتاريخ .

فإلى هناك لننصر مشهد الشروق .



(١) أو لعلها تبدأ . اشعيا ، وثورته المسلمة من أجل العدالة ، والفضيلة والسلام

نحن الآن ، على ضفاف الأردن .. وهذا الرجل المتقتل ،
الأشعث الأغبر ، الذي يرتدي ثوبا من الشعر ، ويعيش
على عسل النحل ، وعلى الجراد الجاف ، هو « يوحنا »
أو « يحيى » عليه السلام ..

إنه عابد أواب ، ليس معه من الدنيا شيء .. وإنه
ليدعو الناس إلى التوبة ، ويُعمدُهم بماء النهر كي
يساعدُهم على تطهير قلوبهم . وإنَّه أيضًا ليُنذِّد في عَنْف
شديد بالنفاق .. وبالكهنة الذين « يغسلون أيديهم ،
وقلوبهم ملائكة دمًا » ... !!!

ملائكة بالشر وبالحقد وبالأنانية .. !!

• وهو ، وإن يكن في عزلته تلك ، بعيدا عن الواقع
السيء الذي تموج به « أورشليم » ، إلا أنه بهذا الواقع
جُدُّ خبير .

ففي « أورشليم » هذه .. تلقى دروسه ، وعاش من عمره
بعضه ، بين الكهان ، والفرّيسين ، والتجار ، وجنود روما
وعلمائهم ..

وهو شديد الخوف من الله ، ومن عقابه .. وإنَّه لا يُفسي
أن هذه أُثْرَقَةٌ من الأرض ، التي يعيش فوقها ، قد ازدهرت
عليها ذات يوم « سدوم » ثم خسف بها ، وبأهلها ، حتى لم
يبق منها إلا عبرتها القاسية الرهيبة .

وهو يستعيد ذكريات القرون التي كانت لها على اليهود
وطأة شديدة . فيبصرون راء كل ضربة محقهم بها القدر :
تلاً من الخطايا ارتكبوها فأخذت الرجفة صالحهم ،
وطالحهم .

أفيستك عما يرى من جرائم وسبيئات ، أم يصدع بما
في نفسه من حديث نافع مضيء .

لكن « أورشليم » على بعد عشرة أميال منه .
فهل يتركه طفاتها يتكلم حين يأتיהם نباء ، أم يسوقونه
إلى نفس المصير الذي طالما ساقوا إليه أنبياء
وقديسين ..

إن طبيعة الإنسان ، هي الإنسان نفسه . وطبيعة
« يوحنا » بكل ما تحمل من جيشان ، وسكون .. من إقدام
وخشية .. من تطلع وعزلة .. من ثُنك وتبتل : وغيره على
الإنسان ..

هذه الطبيعة هي يوحنا .. وإنه ليؤثر في الآخرين بنقل
طبيعته إليهم .

هكذا نحن البشر .. تأثيرنا في الآخرين ، يعني أننا
نقدنا إلى طبائعهم بالجزء الأقوى من طبيعتنا .

وقد يكون الذي يتلقى التأثير ، أقوى من المؤثر ذاته ..
مع هذا ، يظل للتأثير نفعه ، وضرورته .. لأنه يكون بمثابة
ـ « إشارة البدء والانطلاق » . ورفع الغطاء عن القوى
الجبيحة المنتظرة .

وشيء يشبه هذا ، سوف يحدث بين يوحنا ،
وال المسيح .

لم يطل تفكير « يوحنا » ، فاختار طريقه ، وواجهه
مسؤوليته . ووسط حشد من الناس وقف يذيع أولى
كلماته :

— « توبوا .. لأنه قد اقترب ملکوت السموات » .. !!
وطار بين البلاد نباء ، وكثير سعى الوافدة إليه .
وذات يوم ، وال المسيح عاكف على شبابه الطاهر ،
يجلوه ، ويحسن تنشئته ورعايته ، التقى بقائلة من
قريته ، أصحابها عائدون من شاطئ الأردن ذاك ..
ويقترب منهم في شوق ويسألهم :
— هل رأيتموه .. ؟

نعم ..

— ماذا كان يقول للناس ؟

— سمعناه يقول :

« من له ثوبان فليعطيه من ليس له ،
ومن له طعام فليفعل هكذا » !!

وتتفتح روح المسيح ، ويتهلل وجهه .. ويحس كأنها
كلماته .. كأنها مبادئه .. أو كأنه أولى الناس بتقبيلها ،
وحمايتها ، وتحويلها إلى سلوك ونهج .

« من له ثوبان فليعطيه من ليس
له » ..

ما أكثر ما فيها من عذوبة ، ومن
رحمة ، ومن عدل ..

وما أحرارها بالتضحيّة في سبيل حمل الناس عليها ،
سيما أولئك الشريرين القابعين في « أورشليم » المخفيين

وراء أرديتهم الفضفاضة ، نقوسا تفوق في اللؤم ، اللؤم
نفسه . وتکاد الجريمة حين تراها تصيح : مرحبا
بوطني .. !

وعاد يسألهم :

وكيف يستقبل الناس ؟

ويجيبونه :

إنه يفتح قلبه لهم جميعا ، حتى العشرين لا يردهم ،
بل يعمدهم ويعظمهم ، وحتى الجنود ، لقد سأله عما
يصنعون ليرضوا رب ، فأجابهم :

« لا تظلموا أحدا : »

« ولا تشوّا بأحد ». .

وازدادت روح المسيح إشراقاً
وَوْجْدًا ، وأوى إلى نفسه يفكر ،
ويتأمل . .

إن الرؤى العظيمة الباسلة التي
يحسها في أعماقه قد انطلقت صادحة
على ضفاف الأردن ، فلماذا لا يكون
هناك في استقبالها ؟

ومع أول قافلة ، شد رحاله .
وهناك ، بين الصفوف المصغية إلى

كلمات يوحنا ، أخذ مكانه في خشوع
وتقوى .

كان يوحنا يقول :

« أنا صوت صارخ في البرية .

« قوموا طريق الرب » .

وشق السكون سؤال وجّه إلىه :

— هل أنت المسيح الذي يُشرّب بمجيئه !

ويجلجل صوته بإجابة سريعة حاسمة :

« لست أنا المسيح ..

أنا أعمدكم بماء ، ولكن يأتي من هو
أقوى مني ، من لست أهلاً لأن أحلى
سيور حذائه » . !!

ثم يفتح عينيه جيداً على الوجوه الباسرة ، وعلى
اللحي الطويلة المتماءمة في أصداع الكهنة الذين جاءوا
ليتامروا به ، وإذا يبصر فوقها تحركات أحقاد تتحفز
وسخافات تتنادى ، يبددها بصيحة زاجرة :

— يا أولاد الأفاغى !!

وينبهر المسيح بهذه القوة المتحدية .

وحين ينزل يوحنا إلى الماء ليعمد الطالبين ، يتقدم
المسيح إليه راجياً تعميده ، ويلفه يوحنا بنظره غريبة ،
ثم يهمس في سمعه :

« أنا محتاج أن أتعمّد منك ، وانت تأتي إلى »؟؟
ويختلّج رأس المسيح متسائلاً ، وتقلّمع أمامه مرة
أخرى وسط هالة من الضوء الدالِّ الكاشف ، كلمات
« يوحننا » التي صدح بها منذ قريب :
« يأتي من هو أقوى مني » .

ولكن الحوادث تترى في مفاجآت عجيبة ، وفي بلبلة
موجعة ..

فجنود « هيرودس » في خوذهم المستكبرة ، وفي
بطونهم ، المنتفخة بالحرام ، يدهمون المكان الآمن
الوديع ، ويعتقلون « يوحننا » ثم يذهبون به .

ويعود المسيح إلى « الناصرة » بروح غير الذي
غادرها به .. يعود وداخل إهابه إنسان آخر ، لا تشغله
حرفته التي يكسب منها عيشه ، فـ « ليس بالخبز وحده
يحيا الإنسان » ، وإنما يشغله ذلك الدور الجديد الذي
يحس أنه دُعى لأدائه ..

ونفس الصوت الذي سيسمعه « محمد » بعد ستمائة
عام يرن في روعه رنين الصدق هاتفا :

« يا أيها المدثر ، قم فأنذر » ..

نفس الصوت ، يرن الآن في روع المسيح :
« أنت أبني الحبيب الذي به سُررت ..
للرب إلهك تسجد ، وإياه وحده
تعبد » ..

ليس هناك ذرّة من ريب في صدق الحس الذي تلقى به
محمد كلمات ربه .

ولا ذرّة من ريب في صدق الحس الذي تلقى به المسيح
نداء ربه .

فليست في حياتهما أثر - أى أثر - لتصنّع أو ادعاء .
حتى كلمة «ابني» ، في عبارة المسيح لم تزعزع عن
مكانتها ، فنحن جميعاً أبناء الله ، بمعنى أننا خلقه ..
وابوته لنا ، لا تغنى تلك الآبوبة الوالدة التي تعرفها
«دفاتر المواليد» ، بل هي آبوبة الخالق الأول ، والأعظم .
وعما قريب سئلتني بالرسول وهو يستعمل نفس
التعبير ، فيقول :

﴿الخلق عيال الله﴾ ..

﴿وأحب الناس إلى الله أنفعهم
لعياله﴾ .

بل سنسمعه يقول :

﴿يقول الله عز وجل : لا تسبوا
الدهر ، فأننا الدهر﴾ .

فهل الله حقاً هو الدهر ، بالمفهوم الحرفي لكلمة
الدهر .. ؟ !

لا .. وإنما هو سبحانه ، الدهر .. بمعنى أنه القوة
الكبرى المسيطرة والميثوّلة مشيّتها في الزمان ..

والمكان .. والتي ينبعق من خلال رحمتها ، وقدرتها أسباب
الحياة وطاقاتها .

وكذلك وصف الله بالأبوبة ، فهو القلب الكبير الذي
يسعنا بحنانه وببره .
أجل : جمِيعاً .. صالحنا ، وفاسدنا ، قوينَا ،
وضعيفنا .

وفيما وراء هذا ، نلتقي بال المسيح ، ينعت نفسه كثيراً
بأنه « ابن الإنسان » .

بيَّنَ أن « ابن الإنسان » هذا ، لم يعرف فواده الذي أية
تخوم فاصلة بين الأب ، والرب ..
لقد تخطى حدود النسب الأرضي ، وجاؤزها جمِيعاً .
حتى أمه ، حين يقال له ذات يوم : إنها بالباب تریدك ،
يجيب : من هي أمي ، ومن هم إخوتي .. ??
« إخوتي وأمي هم من يعملون مشيئة الرب » !!
هذا هو ابن الإنسان ، الذي نعت الله بأنه أبوه ..
والذي قال : « كل غرس لم يغرسه أبي السماوي
يُقلع » .

إنه الآن أمام الله ، وجهاً لوجه - إن جاز هذا التعبير -
وجميع الأحساب والأنساب ، والأسباب ، ترأوا وتختفي ،
وتذهب بعيداً ، بعيداً .. بعيداً ..

لأن القبس الإلهي ، المعطى لكل إنسان ، قد نما في
المسيح ، وتفوق وانتشر ، حتى ملا وجوده كله ، ولم يَعُد
يُبصر في ضيائِه الباهر سواه .. حتى أمه التي ولدته ،
وحتى إخوته !!!

ارتقت روابطه بهم إلى مستويات عالية من الواجبات
العامة الكبيرة التي تجعل من جميع البشر إخوة له ، ومن
جميع الأمهات أمًا .. ومن وراء هذا كله ، أبوه السماوي ..
ربه الذي أرسله ، كما قال هو ليجبر منكسرى القلوب ،
ويطلق الأسaris من القيود !!

لقد أسهبنا قليلاً في هذه المسألة ، ولم يك هناك بدّ ،
وقد جاعت مناسبتها ، من أن نسبب ونفيض .
والآن نعود إلى حديثنا الأول ..
إلى يوحنا ..

لقد اعتقله جنود روما ، جنود « هيرودوس » إلى حيث
لا يستطيع بعد اليوم أن يلتقي بالناس ، ويهدم في
أنفسهم أوثان الطاعة لروما ، وقيصرها ، ولكرته
أورشليم .

أجل .. إلى السجن ، حيث لا يلتقي بعد بالقلوب
الظامنة إلى كلمة الله ولا بالنفوس السباخطة على الظلم
والكذب .

وخلت ساحة النضال من بطلها المقتحم .. فهل سيطول
بها العهد حتى تُوحِّش .. ??
كلا ، لقد قال يوحنا قبل أن يمضى : « يجيء من هو
أقوى مني » .

فمن كان يجد في نفسه اليقين بأنه هو ، فليتقدم ..
وكان هناك واحد يملأ اليقين روعه ووعيه ..
وكان هو المسيح ..
أوَّلَ دَقْتُ السَّاعَةِ .. ??

أجل ، يا ابن الإنسان .. فتقدم ..
وفوق مكان عال ، في بيت لحم ، وقف يبلغ الحاففين
حوله أولى كلمات الحق :

﴿ قد كَمْلَ الزَّمَانِ ﴾ ..
﴿ وَاقْرَبَ مَلْكُوتَ اللَّهِ ﴾ ..
﴿ فَتُوبُوا ﴾ ..
﴿ وَآمِنُوا بِالْبَشْرِي ﴾ ..

ولندعه يتم حديثه العذب القويم ، ريثما نمضي في
رحلة سريعة إلى مكة لنشهد مجىء أخ له كريم ، ونلتقي
بأولى سمات الزماله بين محمد والمسيح ..

■ □ ■

علام يدلُّ هذا الرجل الصالح ، الزاهد ، الأواب ، الهائم
بين الصحاري والجبال ، الضارع إلى الله في نجوى
دائبة :

أَنْفِي لِكَ اللَّهُمَّ عَانِ رَاغِمٌ
مَهْمَا تُجْثِسْنِي فَأَنِي جَاثِسٌ
إنه « زيد بن عمرو بن ثقيل » يغمره الإحساس بنبوة
آتية ، ويود لو يكون صاحبها ، يختاره الله لها .. فيحظى
بكل ما في هذا الاختيار من شرف ، ويؤدي كل ما يقتضيه
من حق .

وإنه ليجُوب الأرض وحيداً ، ملحاً في دعائه ، معيناً في

رجائه ، مبتهاً إلى ربه سبحانه ، أن يعطيه إحدى
الحسينين :

يكون هو النبي المختار ..

أو يجمعه الله به إذا كان الاختيار من حظ سواه ..
كان « زيد » هذا ، كما نعته المؤرخون ، راجح العقل ،
قوى الخلق ، ذكي الفؤاد ، ثاقب البصيرة .

وهو في إحساسه العميق بمقدم نبي ، لم يكن منجماً ،
ولا عرافاً ، بل كان رجلاً مفتوح العينين على واقع البيئة ،
وروح العصر ، فأدرك وجود حاجة تاريخية ملحة ، تنادى
مصلحاً .. منقذاً .. رسولاً ..

وبلغ إحساسه بحتمية هذا المجيء ، حداً عين له
ميقات ظهوره .. اليوم .. أو غداً .. ولن يتاخر إلى بعد غد
على الإطلاق . !!!

إن هذا الحس الصادق لابن نفيل ، يشكل ويمثل ضرورة
تاريخية كانت تبشر فعلاً بمجيء محمد ..
وهكذا ، وبعد ميلاد المسيح بقرابة « خمسمائة
وسبعين عاماً » جاء في رحلة عظيمة إلى الحياة ، واحد
من أعظم أبنائها شاناً ، وأكثرهم برأ ، وأهداهم سبيلاً ..
وكما لمحنا البيئة الخاصة وال العامة ، التي كانت حين
.. المسيح .. نريد أيضاً أن نلمح البيئة الخاصة
... التي كانت ، حين جاء محمد عليهما
سلوات الله ، وبركاته ، وسلامه .

● كان العرب مبثوثين في جزيرة متراوحة . يزخر

شمالها ، مثلما يزخر جنوبها بالفضاء الواسع ، وبالصحراء العارية . وتقوم القبائل بالبحث الدائب عن لقمتها ، وعلى حراسته عاداتها ، وعباداتها .. وتسير بهم الحياة بطيئة ، كخطى الأغنام في مشيها اليائس وراء عشب تأكله وترعاه .. !

● ولكن هناك قرى كبيرة تجتمع فيها مراكز الحياة القبلية .. مثل مكة ، والمدينة ، والطائف ، في شمال الجزيرة .

وفي وسط مكة ، التي سينعتها القرآن حين ينزل ، بأم القرى يقوم بناء متواضع ، لكنه هائل التأثير ، مقدس المكانة .

إنها الكعبة ..

● وفي الكعبة مزدحم من الأصنام الطارئة ، فما كانت كذلك في أيامها الأولى ..
أما اليوم ، فكل قبيلة ، أو مجموعة من القبائل صنمتها العبود .

يغدو الناس ، ويروحون . ثم ينتهي تطاوفهم دوماً إلى هذه الأصنام ييثونها حاجاتهم ، ومخاوفهم ، وأمالهم .. ● في جنوب الجزيرة ، أو شبه الجزيرة ، يحكم الفرس الذين ناصروا ملوك حمير على الأحباش . ويتخذون من اليمن قاعدة لحكم سافر تارة ، ومقفع أخرى .. ولسوف يظل هناك حتى يبطش أتباع الرسول المُقبل بأمبراطورية الفرس كلها .

● وفي الشمال ، حيث الحجاز ، يسيطر أشراف القبائل ، ورؤساء العائلات والعشائر ، يصلهم الساحل الغربي بمرافئ البحر الأحمر وتجارته . ويغداح الطريق أمام قوافلهم وتجارتهم حتى بلاد الشام ..

● وهذا الشعب الصبور ، شديد التعلق بحريته ، فدُّ الولاء لها . لا يرضخ لأى حكم خارجي . ويؤثر شَظْف الصحراء . ولأواعها . لأن صعيدها المترامي ، وآفاقها البعيدة . وحياتها المنطلقة .. كل هذا ، يغذي في نفسه الطامحة . حنينها الأبدي إلى مزيد من الحرية والانطلاق . ولكته . على الرغم من هذا - وإنه لعجب - يخضع للأصنام خضوعاً مُذلاً . فأمام الحجر الصامت العاجز . يُنیخ كبرياءه واعتداده ، ويسلم أمره ومصيره !

● ثم إنه على الرغم من بداوته ، يمارس حياة أدبية رفيعة .

فالشعراء يملأون فجاجه .. وللشعر ، كما للفتر أعياد ومواسم تشد إليها الرجال . وليس هذا فحسب .. فالإنتاج الأدبي المتفوق يُجاذب ويكافأ ، لأن يرفع إلى أقدس مكان ، فيتعلق باستار الكعبة . حتى ولو كان هذا الإنتاج يصور مغامرات حب ، أو ليلة حمراء ..

وعن طريق القصة المنظومة . كان يورح للنسد ويعبر عن تجاربه تعبيراً فنياً عجيباً .

● وفي طرقات مكة ، كنت تسمع صَهْيلَ السادة وثغاء

البعيد .. وتلتقي بالطائفين حول البيت العتيق ،
وبالمخمورين الذين أضناهم طول السهر في غرف
العاهرات .. وقلما تبصر شعائر إيمان صحيح عاقل .. فإذا
غادرنا مكة إلى العالم ، وجدنا شيئاً قريباً مما كان ، قبيل
ظهور المسيح .

● في الشرق الأقصى ، تفيق اليابان على صوت
المدنية القادمة إليها من الصين ، وكوريا ، والبوذية ..
● وفي الهند ، تمزقات داخلية ، وحروب أو فتن أهلية
متتساوية ..

● والصين ، مشغولة باسترداد الأقاليم المجاورة التي
خرجت عليها بعد سقوط أسرة هان ، ثم لا تثبت أن
 تستقبل عصرأ من السلام ، والرخاء جد عجيب .. !
ومراكبها المترعة بخيراتها ، تمقطى ثيَّج البحر ،
قادمة التغور البعيدة على شواطئ المحيط الهندي ،
والخليج الفارسي ..

الثقافة ، والأدب ، والفن في أزهى عصورها .
ولعلنا - الآن - ندرك سر وصية الرسول التي سيقولها
أو تُغَرِّى فيما بعد « اطلبوا العلم ، ولو في الصين » .. !
هذا هناك ..

أما هنا ، فكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية ،
والإمبراطورية الفارسية ، تخوضان من أجل المستعمرات
في الشرق الأدنى ، وفي أوروبا ، حروباً مُفْنِية .. !
فجستنيان يحرق الهدنة ، ويهاجم شمالى أفريقيا ،

وإيطاليا .. ويرد أنو شروان التحية بمثلها ، فيجتاح بلاد الشام ، وتسقط في حجره كل ثروات ، وخيرات « أنطاكية » .. !

ثم يعقدان الصلح .. ثم يعودان للحروب .. ولسوف يظل بأسهما بينهما شديداً ، حتى يزحف عليهما بعد وقت قريب ، أتباع رسول كريم فيذيعون نعى الإمبراطوريتين الآفليتين !!..

أما اليوم ، فإنهم في حروبهم المخبولة من أجل السيطرة والسلب ، تسلطان سلطانهما على الشام ، والعراق ، وسوريا ، ومصر .. وتشوّمان الناس خسفاً وضنكأ .

وحين نعود إلى حيث كنا ، إلى الصحراء العارية .. إلى الكهوف والبادية .. إلى دنيا الأصنام ، والأزلام ، والميسر .. سنسمع صوتاً جديداً ، يلقي حدثاً عجيباً .. سنبصر إنساناً جديداً يذرع الوجود في رفق وأناه .. إنه هو الذي كان « زيد بن عمرو بن نفيل » يلح في البحث عنه .. والذي كان الزمان والمكان يتطلبانه ، وينتظران قدمه .

إنه ، محمد .. !!

« أجود الناس كفأ .. وأجرأهم صدرأ .. وأصدقهم لهجة .. وأوفاهم ذمة .. وألينهم عريكة .. وأكرمهم عشرة » . إنه قائم بين نفر من الذين يصغون إليه هناك .. في ذلك المكان بعيد عن أعين الرقباء ، يحدثهم عن الله .

﴿الذى أطعهم من جوع ، وآمنهم من
خوف﴾ !!

الجوع ، والخوف ..
يالها من بداية جريئة ، وسعيدة !!
ويتحلق حوله حرّاس القديم ، وغبّاد الأصنام ، فيهمس
إليهم :

﴿يا أيها الكافرون﴾
﴿لا أعبد ما تعبدون﴾
﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾
﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾
﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾
﴿لكم دينكم .. ولئن
دين﴾ !! !! !!

وهذا أيضاً ، كم هو رائع ..
إنه «تعاييش سلمي» يدعو إليه محمد ، أولئك الذين
يرزوا مبكرين لعداوتة وحربيه .
ولكن ، لقد تركنا في قفتنا السريعة هذه ، مشهد
الشروق .

فإلى وراء قليلاً ، لنرى الأمل ، وهو يولد .. والرشد ،
وهو ينمو .. والرسول ، وهو يتسلّم وثيقة الاصطفاء ،
وأمر التبليغ ..

تحن الآن في شُعَبِ من شِعَابِ مكةٍ وَمَكَةَ الْمُتَوَقَّدةِ
عاكفةً على حيَاتِهَا ..

ويولد طفْلٌ يَتِيمٌ ، تَلْقَاهُ ذرَاعًا أَمْ حَانِيَةً ، لَا تَلْبِثُ هِيَ
الْأُخْرَى أَنْ تَغَادِرْ دُنْيَاهَا ، تَارِكَةً وَلِيَدَهَا فِي السَّادِسَةِ مِنْ
عُمْرِهِ غَصَّاً ، وَحِيدًا ..

ويُشَبِّهُ الطَّفْلُ ، شَيَابًا سَرِيعًا نَقِيًّا .. وَتَقْعُ عَيْنَاهُ عَلَى
أَصْنَامِ قَوْمِهِ .

وَعَلَى النَّاسِ الْحَاقِينَ بِهَا ، الْجَاثِينَ أَمَامَهَا ، فَيَأْخُذُهُ
تَفْكِيرٌ ذَاهِلٌ شَدِيدٌ .

أَتَكُونُ هَذِهِ الْحِجَارَةُ الْمُرْكُومَةُ إِلَهًا حَقًّا .. ؟ !
وَيَسْتَأْنِي طَوِيلًا ، قَبْلَ أَنْ يَقْبِلْ عَلَيْهَا ، أَوْ يَعْرُضَ عَنْهَا ،
وَيَأْوِي إِلَى نَفْسِهِ مُفْكِرًا ، ثُمَّ يَنْتَبِذُ مِنْهَا مَكَانًا قَصِيًّا ، بَعِيدًا
عَنِ الْلَّجَاجَةِ ، وَالْمُؤْثِراتِ هُنَاكَ فِي دَارِ حَرَاءِ ، حِيثُ
يَسْتَجْمِعُ قُوَّى إِلَهَامِهِ ، وَيَصْقُلُ كُلَّ اسْتَعْدَادَاتِهِ الرُّوحِيَّةِ ،
وَالْعُقْلِيَّةِ ، وَيَهِبُّ بِكُلِّ الْقُوَّى أَنْ تَخِفَّ لِنَجْدَتِهِ ،
وَهَدَايَتِهِ ، إِنْ كَانَ ثَمَةً لِهَذَا سَبِيلٍ .

ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الْبَيْتَةِ .. إِلَى الْأَصْنَامِ ، وَالضُّوْضَاءِ ،
وَالْتَّقَالِيدِ وَالْأَسَاطِيرِ ، وَكُلِّ مَا يَشْكُلُ حَيَاةَ النَّاسِ ،
وَيَطْوِيهِمْ فِي مَوْجَاتِ زَحَامِهِ .

وَيَسْتَعْرُضُ ذَلِكَ جَمِيعَهُ بِبَصِيرَةٍ مَجْلَوَةٍ ، قَدْ أَرْهَفَهَا
طَولُ التَّعْبُدِ ، وَصَفَاءُ الْوَحْدَةِ ، وَإِلَهَامُ العَزْلَةِ الْمُفْكَرَةِ ..
وَتَقْرَبُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ مِنْ بَصِيرَتِهِ ، فَيَرَاهَا أَكْثَرَ مَا يَرَاهَا
سَوَاهُ .

ويعود إلى «الغار» في ميقاته المعلوم ، وينثر بين
يدي وعيه ، تجاربه الجديدة . وكلما بزغت له خاطرة ،
لم يتوارَ منها ، ولم يهرب من مسؤولية تمحيصها ،
والتفكير فيها

فثقته بنفسه جدًّا عظيمة .. وحياته ، وسلوكه ،
وعلاقاته الصادقة بالحياة ، تشد زناد الثقة فيه إلى
أقصاه ..

ليس في قريش من لا يدعوه «الأمين» ..
وليس فيها من لا يشهد له برجاحة العقل ، وعظمة
النهج ، واستقامة الضمير ..
وهو ينال هذه الثقة بطبيعة مبنية مفتوحة . لا التواء
فيها ، ولا مُخاتلة .

إنه «نسيج وحده» في غير تصنّع
● الناس يعكفون على أصنام لهم ..
أما هو ، فشيء في روعه ، يقول له . قف
● الناس ، يلعبون الميسر ، ويستقسمون بالأزلام .
ويظلمون الأرملة ، ويأكلون مال اليتيم ..
أما هو ، فشيء في روعه ، يقول له : ارجع .
● الناس يعيشون بالوراثة والمحاكاة ، شعارهم «إنا
وجدنا آباءنا كذلك يفعلون» .

أما هو ، فشيء في روعه ، يقول له : فكر .
إذن ، فهو إنسان يحيا داخل حالة عظيمة مضيئة من
أنبعاثات ممتازة متفوقة .

ولقد عانى واجبات وجوده على أمثل طريقة . ومارسها
منذ البدء ، في مستوى عال ، لا يطيقه سوى أولى العزم
من الرجال .

ومع الأيام ، تنضج شخصيته ، وتتفتح رؤاه .
وينمو وعيه الداخلي نمواً تضيق به ذاته ، وتحتشد
قوى نفسه ، وإلهامه ، وتفكيره وعزيمته ، احتشاداً ،
يتعاظم كل تلث ، وكل آناة ، وكل انتظار .
ويهل عليه ، ما كان يرجو وينتظر .. أذان من الله
بالبدء .. ويقين بأنه صاحب الدور ، ورائد المرحلة ..
وذات يوم ..

ولنصح إليه ، يصف ما حدد :

﴿ .. جاءنى الملك فقال : اقرأ ..
قلت : ما أنا بقاريء . فأخذنى ،
فغطّنى حتى بلغ مني الجهد . ثم
أرسلنى ، فقال : اقرأ .. فقلت :
ما أنا بقاريء . فأخذنى فغطّنى الثانية
حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلنى فقال :
اقرأ .. فقلت : ما أنا بقاريء !
فأخذنى فغطّنى الثالثة حتى بلغ مني
الجهد . ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ
باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان

من عَلْقٍ . اقرأ وربك الأكرم . الذى
علم بالقلم . علم الإنسان مالم
يعلم ﴿ .

وهكذا ، يلتقي « الرسول » بدوره . ويحمل الأمانة
الكبرى . ويمضي فى حذر أول الأمر .. ثم يجهر بها
ويتصدّع حين يقول له ربه الذى اختاره واصطفاه
« فَاصْنَعْ بِمَا تُؤْمِنْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .
ولسوف يواجهه من الأذى . ومن الكيد . ومن العناد
ما يزيده إصراراً وعزماً .

ولسوف ينتصر فى معركة الإغراء ، انتصاراً نبيلاً ،
تاركاً كلماته الهدية العظيمة ، درساً لا يرتجف ضياؤه .

﴿ وَالله يَاعُمْ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي
يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي مَا ترَكْتُ
هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَقْضِيهِ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ
دُونَهِ ﴾ ..

سيدعوا بالحكمة والموعظة الحسنة ..
فإذا أحاطت به العداوات الباغية فى مكة ، هاجر
بدعوته إلى المدينة .

وإذا اضطره أعداء الحياة الجديدة ، الطاهرة ، العادلة
التي يبشر بها إلى القتال ، قاتلهم غير معنـد ، ولا مسرف ..
فإذا أظفره الله بهم أخيراً ، سارع إليهم بالنجدة
وبالأمن :

﴿اذهبوا فأنتم الطلقاء﴾ . . .

وعلى طريق حياته الباهرة ، سترتسم ، إلى الأبد آثار
قدَّمَتْيَ رجل .. وإنسان .. ورسول ..
وبعد .. فماذا كان محمد والمسيح ي يريدان .. ؟
ما الغرض العظيم الذي سارا على طريق رب ،
ليبلغاه وليرحققاه ..
لقد بشَّرَا كثيراً بمثوبية الله .. وحَوْفَا كثيراً من عقابه ..
وأذَّنَا في الناس بشعائر ، ومناسك ، وعبادات ..
فهل كان هذا وحسب ، غاية سعيهما .. أم كان أسلوباً
ووسيلة لحمل الناس على إدراك شأو بعيد ، وأمر جليل ؟
لقد قال المسيح : « جئت لأخلص العالم » ..
وقال محمد : « إنما أنا رحمة مُهَدَّاة » ..
فماذا كانا يعنيان .. ؟
من أى شقاء ، سيخلصنا المسيح .. ؟
ومن أى عناء ، سيرحمنا محمد .. ؟
وفي التحليل النهائي لنهجهما ولمواقفهما الراخمة
المثابرة .. ماذا سنجد هناك من ثواب خالص محض .. ؟؟
وبعبارة واحدة :
ماذا كانت وجهتهما ؟ ..
أما أنا فأقول :
كانت ، إنهاض الإنسان .. وإزهار الحياة ..

10 of 10

■ الفصل الرابع ■

مَعَا

مِنْ أَجْلِ الْإِنْسَانِ

الإنسان ..

هذا الاسم ، ذو الرنين الصادق ،
الفاتن ، المُثير ..

هذا الكائن ، الذي اتّمَنَ على أمانات
الحياة وواجباتها ..

هذا المسافر ، الذي لا يضع عصاه عن
كامله لحظة ، والذي يُولّى وجهه ذؤماً
شَطَرَ كمال بعید .. !

هذا الإنسان ، في علمه وجشه .. في ثرائه وفقره .. في حريته وأغلاله .. في تقواه وفجوره .. في صحته وسُقمِه .. في ألمه وأمله .. في عظمته وبؤسِه ..
كيف تراءى لِمُحَمَّد ، ولِالْمَسِيح ؟

ما نوع الواجبات التي حملها تجاهه ؟
ما الأغلال التي حطّمها عنه ؟
ما الانتصارات التي حقّقها له ؟

من هذا المدخل سنمضي ، سائرين وراء ضياء باهر ،
يقودنا نحو ما يُهمنا اليوم معرفته من رسالة عيسى ،
ورسالة محمد ..

ولسوف يكون من حسن حظ الإنسان - في محنته القائمة - أن يبصر عنایة الله به إلى كل هذا المدى الذي لم يكن يَحْدُسه ، وَيَخَالُه ، كما سيكون من سوء حظ أعداء الإنسان ، أن يظهر للناس حقيقة موقف الرسولين الكريمين ، من الإنسان ، ومن حقوقه في هذه الحياة .
قرأتُم أن المسيح رفض مُلْك اليهود ، كما رفض الإذعان لإرهاب رؤسائهم ، وطلب إليهم أن يخلوا بينه وبين كلمة الله ، يريد أن يقولها .

وقرأتُم أن محمداً رفض أن يُعْطِي الشَّمْسَ فِي يَمِينِه ، والقمرَ فِي يَسَارِه ، على أن يترك الأمر الذي من أجله جاء ..

فما الكلمة التي قالها المسيح ، وحرص أعظم الحرص على أن يقولها ؟ ..

وما الأمر الذي أثر محمد تبليغه ، على مُلْك يحده
الشمس ، والقمر !!
إنهم لم يجيئوا بدعوة مجردة ، بل بدعوة ذات موضوع
حافل عظيم .

فماذا كان الموضوع .. ؟
لقد كان الإنسان ، وكانت الحياة ..
وأول ما يبهروننا في عنایتهم بالإنسان ، ذلك التردد
المُمْعِن لاسمها ، والحفاوة الصادقة به .
فاليس ينعت نفسه بأنه « ابن الإنسان » ويكررها
كثيراً .

﴿ إن - ابن الإنسان - لم يأت لِيُهْلِك
أنفس الناس ، بل لِيُخَلِّص ﴾ ..

■ □ ■

﴿ ها نحن صاعدون إلى أورشليم ، و -
ابن الإنسان - يسلم إلى رؤساء
الكهنة ﴾ ..

■ □ ■

﴿ لا يذوقون الموت حتى يروا - ابن
الإنسان - آتياً ﴾ ..

■ □ ■

هـ ومن قال كلام ستر بن الإنـهـ
يغفر له هـ



هـ لا تعرفون اليوم ولا الساعـهـ
فيها - ابن الإنـسان - هـ



هـ إنـ ابن الإنـسانـ سـانـ كـيـمـهـ
مكتوب عنه هـ



هـ كذلك يكون - ابن الإنـسانـ أـيـضاـ
لهـذا الجـيلـ هـ



ويتحدث القرآن الكريم المنزـلـ على محمد عليه الـحـسـلاـةـ
والسلام
يتـحدـثـ عن الإنـسانـ . فيـعـطـيهـ صـفـتـهـ الـحـقـةـ . كـمـحـورـ
لـسـاطـ النـبـيـ . وـمـوـضـوـعـ لـرـسـالـتـهـ
هـ لـقـدـ خـلـقـنـاـ . الإنـسانـ فـىـ أـحـسـنـ
تـقوـبـهـ هـ
هـ لـأـسـابـ . أـنـاـ حـلـقـنـاـهـ مـنـ

﴿ إن - الإنسان - خلق هلوعاً ﴾ ..

■ □ ■

﴿ إن - الإنسان - ليطغى ، أن رأه
استغنى ﴾ ..

■ □ ■

﴿ وإذا أنعمنا على - الإنسان - أعرض
ونأى بعجانيه ﴾ ..

■ □ ■

﴿ فإذا مس - الإنسان - ضر دعاها ﴾ ..

﴿ وكان - الإنسان - أكثر شيء
جدلاً ﴾

■ □ ■

﴿ ويدع - الإنسان - بالشر دعاه
بالخير ﴾ ..

■ □ ■

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات
والأرض ، والجبال ، فأبین أن
يتحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها -
الإنسان - ﴾ ..

الستم تجدون لتكرار كلمة « إنسان » سبباً وثيقاً من
الحنان والبر ، ومن العناية ، والاهتمام ، يصله باهـ ،
وبمحمد رسوله ؟

إن الإنسان ، هو موضوع الرسالة إذن ، رسالة محمد ،
ورسالة المسيح .. ونحسب هذا من البداهة بحيث
لا يحتاج إلى تقرير ..
وإلا ، ففيـم كان مجـيـراً الرـائـدـيـن الشـاهـقـيـن والـرسـولـيـن
الـكـبـيرـيـن ؟

● ولأنهما بـعـثـا من أـجـلـ الـإـنـسـان .. كـانـا إـنـسـانـيـن .. كـانـا
رـجـلـيـن مـنـ الـبـشـر .. اـثـنـيـن مـنـ عـبـادـ اللهـ وـمـنـ أـوـلـادـ آـدـم ..
يـأـكـلـانـ الطـعـامـ ، وـيـمـشـيـانـ فـيـ الـأـسـوـاقـ .
وـلـمـ يـجـيـئـ مـلـكـيـن .. لـمـ يـجـيـئـ مـنـ عـالـمـ غـيـرـ عـالـمـناـ ،
وـلـاـ مـنـ طـبـيـعـةـ غـيـرـ طـبـيـعـتـناـ ، بـلـ لـمـ يـخـلـقـاـ فـيـ خـلـقـيـغـايـرـ
خـلـقـنـاـ .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا
رَسُولًا ﴾ .

هـذـا يـقـولـ اللهـ سـبـحـانـهـ ، وـهـوـ لـمـ يـنـزـلـ مـلـكـاـ ، لـأـنـ
الـإـنـسـانـ الصـادـمـ أـمـامـ تـجـرـيـةـ الـحـيـاةـ .. الـإـنـسـانـ الذـىـ حـمـلـ
أـمـانـةـ الـوـجـودـ بـعـدـ أـنـ أـشـفـقـ مـنـ حـمـلـهـ ، وـتـنـحـىـ عـنـهاـ
خـلـائـقـ كـثـيرـةـ كـانـتـ تـسـيرـ مـعـهـ فـيـ سـبـاقـ التـطـوـرـ العـظـيمـ .
الـإـنـسـانـ هـذـاـ ، خـلـيقـ بـأـنـ يـتـلـقـىـ مـنـ نـفـسـهـ ، الدـرـسـ
وـالـمـقـلـ .. وـإـذـنـ ، فـلـتـاتـهـ رـسـلـهـ مـنـهـ ..

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ،
عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ﴾ ..

● ومن هنا ، يبدأ توقير محمد وال المسيح للإنسان .
يبدأ من إمعانهما الكبير في توكيدهما بشرعيتهما ، وإعلان
إنسانيتهما ، ووضع وجودهما داخل هذا الإطار دوماً ..
ولقد كانوا ، وهما يرفضان الشطط في إطاريهما ..
والغلوّ في توقيرهما إنما يقرران القيمة الحقة للإنسان ..
كأنهما يقولان لمن يحاول سلخهما من بشرعيتهما :
أىًّ مقام هناك أسمى ، وأعظم ، تريد أن تذهب بنا
إليه .. ؟ !!

وماذا فوق الإنسان من خلق .. ؟
الملائكة مثلاً .. ؟

إنهم في خدمة الإنسان الصالح الكادح ..
وحيين أراد الله أن يصطفى لنفسه خلفاء في الأرض ،
تعالت ترنيمات الملائكة ، ضارعة ، مبتلة أن يكونوا
 أصحاب الحظ في هذا الاصطفاء ..
لكن الله رَمَقَ « الإنسان » بعينٍ حانية ، وأشار نحوه في
حب غامر وقال :

هذا هو الخليفة .. !!

إذن ، فالإنسانية ، هي الجنسية المشرفة التي يحملها
المسيح ، ويحملها آخوه ، وهما بها جد فخوران .
عيسى يقول :

أنا ابن الإنسان .

ومحمد يقول .

أنا بشر مثلكم .

ويؤكدان هذا المعنى أكثر ، وأكثر ، حين ينْهَى المسيح
من أطري صلاحه فيقول له :

﴿ من قال إني صالح ؟ ! ليس من أحد صالح سوى واحد ، هو الله ﴾ ..

ويطلب إلى تلامذته لا ينعتوه بالMessiah .. !
وينْهَى الرسول أصحابه حين يقولون له أنت سيدنا ،
ويقول لهم :

﴿ لست سيداً لأحد ، إنما أنا عبد الله
ورسوله ﴾ .

كان حرصهما على أن يظلا في وعي الناس مجرد بشر ،
اعتداداً بدور الإنسان ، واعتزازاً بالبشرية نفسها ، ورغبة
أمية في الحياة داخل إطارها ، وطبعتها ..
حتى معجزاتها ..

لم تكن تعنى - كما يحلو لنا أن نفهم - أنهم غادرا
صفوف البشر ..

فكل عمل عادى .. يتم بأسلوب غير عادى ، يشكل
معجزة ..

وإن ذلك ليبدو واضحًا في أعظم معجزات محمد
وصاحبه ..

فأعظم معجزات محمد ، هي محمد نفسه ..
وأعظم معجزات المسيح ، هي المسيح ذاته .
فماذا هناك .. ؟

إنهما ، بشرٌ مثلنا ، يعيشون على ذات الأرض ،
ويشربون من نفس الماء ، ويأكلون من نفس الطعام .
ولكن الأسلوب الذي اتبعاه في نسج حياتهما
العظيمتين ، لم يكن أسلوبًا عاديًّا ..
بل كان متفوقًا ، وخارقاً .. فكانت المعجزة .
والقرآن - مثلاً - كلام ملفوظ .. ومسطور ، والكلام شيء
عادى ، لأن البشر جمِيعاً يتكلمون .

ولكن ، لأن هذا الكلام القرآني جاء بأسلوب غير عادي ،
فقد صار معجزة ، ومعنى أنه جاء بأسلوب غير عادي ..
أن الإنسان الذي جاء به أُمُّي ، لا يقرأ ولا يكتب .. وأنه
بذل في إعداد نفسه وروحه كي يستطيع تلقيه عن ربه ،
جهوداً ، أكثر من مضنية ، وأكثر من خارقة .

ومسيح ، حين يشفى المرضى اليائسين ، وحيز يرد
إلى الحياة من اقتربوا من غيبوبة الموت . إنما يمارس
عملًا عاديًّا من أعمال البشر ، وهو التطبيب ، والعلاج
ولكن ، لأن شفاءه للمرضى يتم بأسلوب غير عادي .
وهو لمسة كف أو نظرة عين .. فهنا يكون العمل معجزاً

* * *

أجل .. لقد كانت القوة الخارقة التي يرد بها المسيح العافية إلى المزمنين ، والتي يدراها بها الموت عن الحياة المتعلقة بآخر خيوطها .. كانت قوة نابعة من ذاته . ولكن ذاته ، لم تكن مثل ذواتنا .. بل كانت مؤهلة لعظام الأمور ، سعيّة ببطاقات فريدة وهائلة . وفي حياة المسيح نبأ يصور هذا المعنى ، ويجسمه .
برويه إنجيل « لوقا » ..

ف ذات يوم ، كان يعبر الطريق ، ومعه نفر من تلامذته ، واقتربت منه في زحمة الحافين حوله ، سيدة كانت تعانى نزيفاً مزمناً .. وفي إيمان عميق واثق لمست هذب ثوبه . وتوقف المسيح عن المسير فجأة ، وقال : ﴿ من الذى لمَسْنِي .. ؟ ﴾ .

—﴿يَا مَعْلِمٍ، إِنَّهَا الْجَمْعُ تَضْيِيقٌ
عَلَيْكَ، وَتَزْحِمُكَ﴾ . . .
ويعود السيد المسيح ، فيؤكد أن أحداً لمسه ، لأن قوة
خرجت منه :

—﴿لَقَدْ أَحْسَنْتْ بِقُوَّةِ تَخْرُجٍ
مِّنِي﴾ .. !!

قُوَّةُ تَخْرُجٍ مِّنْهُ .. ؟؟

أَى تَفْسِيرٍ عَجِيبٍ لِّلْمَعْجِزَةِ .. ؟؟ !

لكانه آت من عقل رياضنى ، وليس من قلب مسجع .. !
إن الإنجيل يتم هذا النبأ ، فيخبرنا أن العلة زايلت
المرأة المريضة في نفس الوقت .

وهكذا ، يساعدنا المسيح على فهم المعجزة ، وإدراك ما حدث حين يقول : إن قوة خرجت مني .. فالذى حدث ساعتئذ ، أن رغبة إنسانية ، مؤمنة مستسلمة ، تعلقت بطاقة بشريية غامرة ، طالبة منها العون على الشفاء والخلاص ..

جهاز استقبال سوئي ، التّحّم بجهاز إرسال قوي ، فتلقى
عنه في نفس اللحظة والوقت ..

أجل ، فلم تكن لمسة عابرة مسترخية مستريبة ، تلك التي ثبّتت المسيح إلى جزء من طاقته يغادرها وينفصل عنها . بل كانت لمسة هاتفة ، داعية ، ضارعة ، مبتلة .. كانت إيماناً مفجعاً ، يتحسّس طريقه في ثقة واستنهاض ، إلى ملاذ هو وحده ، وفي تلك اللحظة بالذات ، الأمل الأوحد ، والرجاء الأعز .

ولقد أراد المسيح أن يؤكد لتلامذته الذين بهرم شفاء المريضة ، أن ليس في الأمر شيء غير طبيعي ، فأشار للمرأة قائلاً :

(. ایمانک قد شفак ..) —

اذہبی بسلام) . .)

100

هذه المعجزات .. لم تكن - كما قلنا قبلًا - خروجاً
بالرسولين الكريمين عن صفة البشرية .
كما لم تكن تغيريراً بالبسطاء ، وكسياً لإيمانهم .. فالذى
لا يهديه إلى الإيمان نور الشخصية . وجلال العمل .
لن يهديه شيء آخر ..

• ثم إن محمدًا ، والمسيح ، لم يهتما بشيء مثل
اهتمامهما بأن يحررا البسطاء من غفلتهم وسذاجتهم ،
ويحررا الذكاء الإنساني مما يُوبقه من رواسب الرؤى
المغلوطة ، والأساطير الموروثة .

لقد خسفت الشمس ، يوم مات « إبراهيم » ابن
رسول الله .

وقال أصحابه : « إن الشمس خسفت لموت إبراهيم » ..
أفلم تكن هذه فرصة طيبة للرسول ، لو كان مُنتَجًا

سجاد

بلو

قالها

يفعل

من عليه إلا أن يصمت ، ويدع العبارة التي
تنشر . ولكنه لا يفعل .. ولا ينبغي له أن
يُفْعل في أصحابه قائلًا :

— ﴿ إن الشمس والقمر آيات من
آيات الله .. لا ينخسفان لموت
شد .. ولا لحياته ﴾ ... !!!

قف العظيم .. موقف المسيح .
مير .. يايرس « رئيس المجمع يُؤلول ، وينكفيء

فوق قدميه يقبلهما أمام الكافة ، ويتوسل إليه ، كى يذهب
إلى ابنته التى ماتت ليرد إليها الحياة .
ويدخل المسيح على البنت . وآهلها حولها . ينوحور
ويضجون ويُلْقى على الجسد المسجى نظرة طاهره
قادره ، فيتحرك الجسد تحت غطاه .
وتتحول الضجّة الباكيه الحزينة إلى دهشه . وفرح
وصياح ..

إن المسيح أحياها
ولكن الصادق العظيم ، يشير إليهم بكافه المضيئه ،
إذا صمتوا قال لهم

﴿ إنها لم تمت .. لقد كانت
نائمة ﴾ .. !!!

تأملوا هذين الموقفين جيداً . موقف محمد من خسوف
الشمس . وموقف المسيح من ابنته « يايروس » .
ثم اعلموا أنكم أمام أربع مثل لتكريم الإنسان ،
ولاحترام عقله ، ولتحريره عن غوغائيته وسذاجته .
والرجل العادي ..

إن النظم ، وإن الحضارات ، لتمتحن بعده ما تقدم
للرجل العادي من خدمات ، وما تهيئ له من فرصة .
وما تضفيه عليه من تكريم .
ذلك ، لأن (الرجل العادي) يمثل المجتمع . ويشكل
دوماً أكثرية المجتمع والأمة .

والنظم القوية ، والقوانين العادلة ، إنما تُشَّئُ في الحقيقة لحماية (الرجل العادى) ، وإرباء حظوظه فى الحياة .

وفي المجتمعات التي تقوم على التمايز الباطل ، يقع (الناس العاديون) فريسة لطبقة معينة من الأشراف والساسة ، يلقون الرعب في قلوب غرمائهم وضحاياهم ، ويستحوذون في صفاقة وفجْر على حقوقهم وأرزاقهم . وفي مثل هذه الأوضاع ، تتمثل حماية (الرجل العادى) وتكريمه في إعطائه الأولوية التي يستحقها بكمده ، وبعمله .. ومن ثم التقدير الأدبي والمادى الذى يرشحه له طول حياته .. ثم تكون بزجر تلك العصابات الضالة المتفطرسة النهازة التي تفتك بالعدل ، وبالحق .. وعزلها عن عرشها الزائف المفترض .

ترى ، ماذا كان موقف يسوع ، ومحمد .. من الرجل العادى .. ؟

الإنسان الذي لا حول له من مال ، أو جاه ، أو منصب . المستضعف ، الذي طالما يُتَّخذ ظهره مرعى لسياط الطغاة .. !!

الكادح ، الذي طالما يصطنع عرقه نبيداً ، يكرعه الجنة .. !

الحق أن موقفهما مع (الرجل العادى) يبهر الألباب . وسننصرهما الآن ، وهما يجدبان (الإنسان العادى) هذا ، ليأخذ مكانه في الصف الأول .

ثم ، وهم ينهالان على كبرىء الأشراف الكاذبة ،
فيتحققانها محقاً .. !
ولنبدأ بال المسيح .

■ □ ■

هل تبصرون هذا القائم هناك .. وسط حالة من صفاء
روحه .. وفي يمينه سفر (أشعيا) يقرأ منه .. ؟
إنه هو ، عيسى روح الله وكلمته ، فلنصلح إليه :

﴿روح الرب مسحني ، لأبشر
المساكين ..﴾

﴿أرسلني ، لأشفى منكسرى
القلوب ..﴾

﴿لأنادى للمأسورين بالانطلاق ..﴾

﴿ وللعمى ، بالبصر ..﴾

﴿ وأرسل المُنْسَحِقِين فى
الحرية .. !﴾

وهذا أيضا .. المطل من بين الحشود الحافة حوله .
إنه هو ، يتحدث :

﴿ طوباكم أيها المساكين ، لأن لكم
ملكوت الله ..﴾

﴿ طوباكم أيها الجياع الآن ، لأنكم
تشبعون ..﴾

﴿ طوباكم أيها الباكون الآن ، لأنكم
ستضحكون ﴾ .. !

إن المسيح يحدد مكانه في المجتمع حين يستشهد
 بكلمات أشعيا ، ويتحدث بها كنبراس له ، ومنهاج .
 إنه مع المساكين ، كي يبشرهم .

مع منكسرى القلوب ، ليجبر قلوبهم .

مع المأسورين ، كي يحطم أغلالهم ويطلّقهم .

إنه مع (الإنسان العادى) الذى ليس معه من مال
الدنيا ، ولا من جاهها ، ولا من سلطانها ، ما يرد إليه
حقوقه التى اغتصبها منه الذين هم فوق .

لقد سلح الناس العاديين بأقوى الأسلحة ، الإيمان
والأمل ، حين قال لهم بلسان رب القدير : طوباكم ..
وقفز بمكانتهم الاجتماعية إلى الصدارة ، حين جعلهم
من الأهمية إلى حد أن يرسل الله من أجل حمايقتهم ،
وتصحیح أوضاعهم ، رسلاً ..

﴿ روح الرب مسحني ، لأبشر المساكين ﴾ ..

﴿ لأنادي للمأسورين بالإنطلاق ﴾ ..

إن هذه العبارة وحدها : «أنا دى للمأسورين
بالإنطلاق» لتمثل المفهوم الثورى لدعوة المسيح ،
وتشير إلى الخطة الكاملة التى كانت ستتبدى خلال نضاله
من أجل الجماهير المهمضومة .. لو قدر لأيامه على الأرض
آن تطول .

هذا الروح الكبير ، الذى كان يعبر الطريق ، باحثاً عن
مفلوج ، ليشفيه .. أو مصروع ، ليداويه .
والذى يوصى كل مؤمن به : فيقول :

﴿إِذَا صنعت ضيافة ، فادع
المساكين ، الجائع ، العُرَج ،
العمى .. فيكون لك الطُّوبى﴾ .. !

إنه يصحح بهذه الأساليب الملائمة للبيئة ، والعصر ،
وضع (الرجل العادى) فى مجتمع ينتهك حقوقه
ويزدريه .

لكن هذا ، لا يكفى .

وكل إيماء بالكرامة والأمل لذلك الكائن المقرور
المرتعش ، خلائق بأن يذهب بددأ تحت وطأة الإذلال
الموصول ، الذى يصبُّه عليه صبأ ، السادة الأغلون .
إذن ، فلحساب (الرجل العادى) يقرر المسيح أن
يخوض معركة كبيرة مع أولئك الأشراف .

أولاً : ليزجر غرورهم ، ويفتح أعينهم على اثامهم
ومظالمهم .

وثانياً : ليُغْرِى بهم أولئك المستضعفين الذين
يترَّخُون ، فرقاً منهم وخوفاً .

ولقد فعل ..

وبدأ بالطبقتين اللتين كانت لهما على الناس وطأة
مميّة .. طبقة الكتبة ، وطبقة الفريسيين .

وأمام حشد هائل من الناس ، واجههم ذات يوم ..
وقف « ابن الإنسان » يتفجر ذكاء ، وعُنفواناً ، وصِدقاً .
وقف وحده ، أعزل .. لا مال ، ولا سلاح ، ولا عصبية ،
ولا حزب ... !!!

وهذا ، هو الدرس .. فلو أنه قوى ، غنى ، مُدجّج
بالأنصار المتحفزين ، ما تركت كلماته المقبلة في أنفس
المستضعفين أثراها المرتجى ، ولا حركت فيهم إرادة
التحدي ، والمقاومة .

إن الدرس لنافع ، حين يُدغدغ كبراء العصابة
المستعلية ، رجلٌ يُمثل حالة الجماهير تماماً ..
أعزل ، مثلما هي عزلاء ..
فقير ، مثلما هم فقراء ..
مضطهد ، كما هم مضطهدون ..
ولقد وُجد الرجل ..
وُجد روح الله وكلمته ..
وها هو ذا ..

الجموع من حوله ، وقد تعلقت به أبصارهم في انبهار
ووَجْل ..

ودهاقنة الطبقة المستعلية ، أمامه ، وجهاً لوجه ..
لا .. بل وجهاً منكسرة ذاوية .. أمام وجه مُتهلل ، وجنبه
عالية .. !!

وفي سخرية ماحقة ، يبدأ حملته :

﴿ على كرسي موسى .. ﴾
﴿ جلس الكتبة ، والفرّيسيون .. ﴾ !
﴿ فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه ،
فاحفظوه .. ولكن حسب أعمالهم
لا تعملوا .. لأنهم يقولون مala
ي فعلون ﴾ .. !!

وتتبعث هممة استنكار من جانب السادة ، ولكنها
تتلاشى سريعاً في خضم الإعجاب الذي جاء من جانب
الحشود ..

ويستأنف حديثه عن أشراف « أورشليم » الممثلين
أمامه في الكهنة ، والكتبة ، والفرّيسين ، فيقول :
﴿ إنهم يحرمون أحمالاً ثقيلة ، عسرة
الحمل ، ويضعونها على أكتاف
الناس .. وهم لا يريدون أن يحركوها
بأصعبهم ﴾ ..

﴿ وكل أعمالهم يعملونها ، لكي
ينظرهم الناس .. فيعرضون
عصائبهم ، ويعظمون أهدايا
ثيابهم .. ويعجبون المتكأ الأول في
الولائم .. والمجالس الأولى في

المجتمع .. والتحيات في الأسواق ..
وأن يدعوهم الناس ، سيدى ..
سيدى ﴿ .. !!

ثم يندفع صوته في هدير ، حار ، متوجج ..
وتتعلق . أبصار الجموع بكلماته كأنها الحَقِّي ،
والنَّجْدَة ، والملاذ ..

﴿ .. لكن ويل لكم ، أيها الكتبة
والفريسيون المراؤون ، لأنكم تغلقون
ملكوت السموات قُدُّام الناس ،
فلا تدخلون أنتم ، ولا تدعون
الداخلين يدخلون .. ﴾ !

﴿ ويل لكم ، أيها الكتبة والفريسيون
المراؤون .. لأنكم تأكلون بيوت
الأرامل ، ولعلة تطيلون صلواتكم ..
لذلك تأخذون دينونة أعظم ﴾ ..
وتختلج على وجوه الناس بشائر قوة وعزم .. فيلقفها
المسيح ، وينفح فيها من روحه لتنعم .. ثم يدمدم
بسخريته على السادة :
﴿ ويل لكم ، أيها القادة العميان .. ﴾

﴿ القائلون : من حلف بالهيكل ،
فليس بشيء .. ولكن من حلف بذهب
الهيكل يلتزم .. ﴾ !

﴿ أيها الجهال والعميان ﴾ .

﴿ أيما أعظم .. الذهب .. ؟
أم الهيكل .. ؟ ﴾ .

﴿ ويل لكم ، أيها الكتبة ، والفرّيسيون
المراؤون ﴾ .

﴿ لأنكم تشبهون قبوراً مُبَيِّضة .. تظهر
من خارج جميلة .. وهى من داخل
مملوئة عظام أموات .. ﴾

﴿ وهكذا أنتم أيضاً ، من خارج
تظهرون للناس أبراراً ، ولكنكم من
داخل ، مشحونون رباءً وإثماً ﴾ !!

لحساب من كانت تلك الحملة الصاعقة على محرفي
الشريعة ومستعبدي الإنسان .. ؟ ؟

كانت لحساب « الناس العاديين » .. لحساب الإنسان ،
وكرامته وحقوقه ..

لحساب بعثه العظيم الذي جاء المسيح يمهد له

الطريق ، وينحي عنه أولئك الذين « يحرمون أحتمالاً ثقيلة
عسرة الحمل ، ويضعنها على أكتاف الناس .. !!

■ □ ■

والآن .. إلى رفيق عيسى ، وأخيه .. إلى « محمد »
لنبصر موقفه مع (الرجل العادى) .. وموقفه من
مستغليه ..

ولسوف يبهرنا بمثل ما بهرنا به المسيح ..
ولا بدع .. فروحاً هما العظيمان ، سقيا بما واحد ،
واصطنعواهما لنفسه أحسن الخالقين ..

والتجربة لدى الرسول ، رائعة ، وحاسمة ..
إذ نشهد فيها الرسول نفسه ، وهو يتلقى من ربِّه الكبير
خطوة العمل ، والنهج الذي يحدده واجبه تجاه (الرجل
العادى) ..

كيف .. ؟ ؟ ؟

إليكم النبأ العظيم .

عندما أذاع « محمد » دعوته ، اقترب منه الفقراء ،
والمستضعفون شأن كل دعوة حية ، طالعة ، منفذة ..
وذات يوم ، طرق باب الرسول مبعوث لأشراف مكة
وكبرائها ، يقول له :

﴿ يا محمد ، إن أشراف قومك يرون
أن يستمعوا لك ، ولكنهم لن يجلسوا
مع صداليك مكة وفرايئها .. فإن شئت

أن تجعل لهم يوماً ، ولأتباعك
يوماً ..)

والرسول بطبعه ، لا يحمل في نفسه ، ولا في تفكيره ،
ولا في سلوكه ، أدنى اعتبار لمثل هذا التمايز .

وهو إذن لا يرى بأساساً في أن يجيب هذه الرغبة ، حتى
يربح الإيمان والفضيلة ، تلك النفوس الشاردة ، وعندئذ ،
سيبحث هؤلاء أنفسهم عن القراء والصالحين
ليجالسوهم ، ويزاملوهم ، بعد أن تلين قلوبهم لذكر الله
وما نزل من الحق .

ويطلب الرسول إلى الرجل أن يعود إليه في غد ، حيث
يكون قد فكر .. أو يكون قد جاءه من الله وحى .

” وفي غد ، يرجع مبعوث الأشراف في ميعاده ، ليتلقى
من الرسول رفقاً أكيداً ..
ماذا حدث .. ؟

لقد جاءت كلمات الله ، تحمل للرجل العادي أعظم
تكريم .

الم يكن السادة يريدون لأنفسهم مجلسا غير مجلس
الناس العاديين .. ؟

لا .. لن يكون لهم ذلك أبداً ..

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

بِالْغَدَةِ وَالْعِشَىٰ ، يَرِيدُونَ وَجْهَهُ .

وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تَرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ

الدنيا ، ولا تطع من أَغْفَلْنَا قلبه عن
ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فُرُطاً ﴿٤﴾ ،



﴿وَلَا تطرد الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاءِ
وَالْعَشَيْرَ يَرِيدُونَ وِجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ
حِسَابِهِم مِنْ شَيْءٍ ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِم مِنْ شَيْءٍ . فَتَطْرُدُهُمْ ، فَتَكُونُ
مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ..

انظروا ..

إن رغبة السادة هذه ، لو تحققت ما ترتب على تحقيقها ضياع حق الآخرين .. ثم إنها قد تفضي بقوم ضالين إلى الهدایة ، والخير .. وعلى الرغم من هذا ، يرفضها الله في حسم ، ويعتبرها من زينة الحياة الدنيا التي لا ينبغي للرسول أن يريدها .. !

إن روعة هذا المشهد تتمثل في كشفه عن مكانة الرجل العادى في عين الله .. وفي تعبانيها غيره الله على ذلك الإنسان العادى .

إن الله سبحانه ، لَيَجْعَلَهُ . موضوع وصية مفعمة بالحنان ، مترعة بالمحبة ، حين يقول لنبيه :
﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُم﴾ ..

ويعتبر التمايز ، طرداً لهم وظلماً ..
فيقول لرسوله : « وما من حسابك عليهم من شيء ،
فتطردتهم ، فتكون من الظالمين » .. !!
ويشير الرسول وفق هذا التعليم السديد الرشيد
العظيم .. فلا يكاد يحصر الناس العاديين هؤلاء ، قادمين
نحوه ، في أي ساعة .. في أي يوم ، حتى يتلقاهم
بحفاوة ، ويبسط لهم رداءه ليجلسوا فوقه ، ويقول .
﴿ أهلاً بمن أوصاني بهم ربى ﴾ .. !!

الإنسان العادي إذن . الذي يمثل جمهرة الأمة والشعب
في كل بلد . كان وصيية الله لمحمد ، مثلما كان وصيته
سبحانه للمسيح .. مثلما كان وصيته لكل نبي ، وكل
رسول .

وكما رأينا المسيح يعمق هذا المعنى فيوعى
تلامذته ، فرى الرسول يعمقه فيوعى أصحابه .
ذات يوم ، يمر به رجل بادي الفقر والمسكنة .
فيسأله النبي جلساً :
« ما تقولون في هذا » . ؟؟

فيجيبون : « هو والله خليق إن خطب إلا يزوج . وإن
تكلم إلا يُضفي إليه » .

ويصمت الرسول حتى يمر رجل آخر عليه مخايل النعمة
ومظاهر الثراء .. فيسأله :
﴿ ما تقولون في هذا .. ؟؟؟ ﴾

فَيُجِيبُونَ : « هُوَ وَاللَّهُ ، حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يَزُوَّجَ .. وَإِنْ تَحَدَّثَ أَنْ يُسْتَمِعَ لَهُ » ..
فَيَقُولُ لَهُمُ الرَّسُولُ :

﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيدهُ ، إِنَّ الْأَوَّلَ ، لِخَيْرٍ
مِّنْ مُلْءِ الْأَرْضِ مِنْ مُثْلِ هَذَا ﴾ .. !!
هُنَا رَسُولٌ ، يُحرِّرُ قِيمَةَ الْإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ زَيفٍ ، وَزُورٍ .
يُحرِّرُهَا مِنَ الْأَوْضَاعِ الْكَاذِبَةِ الْمُفْتَعَلَةِ ، وَيُرْدِهَا إِلَى مَكَانِهَا
الْحَقُّ ، فِي جَوَارِ الْخَيْرِ ، وَالْعَدْلِ ، وَالْحَقِّ .
وَلَا يَتَرَكُ الرَّسُولُ فَرْصَةً لِتَكْرِيمِ النَّاسِ الْبَسْطَاءِ
الْعَادِيَّينَ ، إِلَّا اهْتَبِلَهَا .

يَقْفَ بَيْنَ يَدِي اللَّهِ دَاعِيًّا ضَارِعًا :

﴿ اللَّهُمَّ أَحِينِي مَسْكِينًا ، وَأَمْتَنِّي
مَسْكِينًا ، وَاحْشُرْنِي فِي زَمْرَةِ
الْمَسَاكِينِ ﴾ .

وَإِذَا كَانَتْ « الْجَنَّةُ » تَمَثِّلُ فِي دِيَنِهِ وَدُعْوَتِهِ ، أَرْفَعُ
الْمَثَوَّبَاتِ ، وَأَبْقَاهَا .. وَأَقْصِي الْدَّرَجَاتِ الْعُلَىِ .
وَأَسْمَاهَا .. فَقَدْ أَرَادَ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ ، أَنْ يَكْرِمَ (الرَّجُلُ
الْعَادِيُّ) تَكْرِيمًا ، يَجْعَلُ الْأَشْرَافَ وَالسَّادَةَ يَتَطَامِنُونَ ،
وَيَتَمَنُونَ لَوْ لَمْ يَكُونُوا أَشْرَافًا ، وَلَمْ يَكُونُوا سَادَةً ..
مَاذَا قَالَ « الرَّسُولُ » فِي هَذَا الْمَقَامِ .. ؟
قَالَ :

﴿ قَمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ ، فَإِذَا عَامَّةٌ مِنْ
دُخُلَّهَا الْمَسَاكِينُ ﴾ .

وهو يبحث دوماً عن الناس العاديين ، ليجالسهم ،
ويقول :

﴿ أَبْغُونِي - أَيُّ اطْلَبُونِي لِي -
ضَعْفَائِكُمْ ﴾ .

ثم يقرر الصفة الاجتماعية لهم ، وكيف أنهم الكادحون ،
المنتجون للثروة ، وللدخل القومي .. فيقول :
﴿ إِنَّمَا تُنْصَرِّفُونَ ، وَتُرْزَقُونَ
بِضَعْفَائِكُمْ ﴾ .

والرسول حين يستعمل كلمة «مسكين» وكلمة
«ضعفائكم» لا يعني بالمسكنة ، الهاوان .. ولا يعني
بالضعفاء ، العجزة ..

وإنما يعني الناس البسطاء الذين يأخذون في
«الكادر» الاجتماعي مكاناً بسيطاً متواضعاً ..
ولم يقتصر تكريم الرسول للرجل العادي على تمجيده ،
وتمجيد تواضعه ، وحياته العامة المتعلقة .. بل شاركه
هذه الحياة ..

لقد كان أكثر أهل المدينة فقراء ..
فالإنفاق محدود ، والدخل قليل ، فأخذ الرسول عليه
السلام مكانه إلى جوار الأكثريّة الفقيرة ..

كان يستطيع أن يحيا حياة أرغم ، بنصيبيه من الفيء ، والغنايم ، وبالهدايا التي لا تنتهي قوالها .. ولكنه أبي .. وجعل ذلك كله أو معظمها ، من حظوظ أمته وأصحابه .. لا حبا في الجوع ، ولا اختياراً للفرار .. ولكن مشاركة للأكثرية ، ومعاناة لما تعانيه . تقول السيدة عائشة زوجة الرسول :

﴿ كان يأتي علينا الشهر ، ما نُوقِدُ فيه ناراً .. إنما هو التمر ، والماء ﴾ ..

وتقول :

﴿ ما شبع آل محمد من خبز البر ثلاثة ، حتى مضى لسبيله ﴾ ..

وتقول :

﴿ ما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا وإحداهما تمر ﴾ ..

ويقول هو ، عليه الصلاة والسلام :

﴿ لقد أخافت في الله ، مالم يخف أحد .. وأوذيت في الله ، مالم يؤذ أحد .. ولقد أتى على ثلاثون مابين يوم وليلة ، ومالي ولبلال من الطعام ، إلا شيء يوازيه إبط بلال ﴾ .. !!

مرة أخرى .. لم تكن هذه الزهادة عن حاجة وفقدان دائمًا .. بل كانت طريقة مختاراة ، وخطة مقصودة .. ولقد فتحت عليه دنيا من الخيرات ، فما غير من سلوكه هذا شيئاً .. بل كان حين يجيئه الفيء ويوزعه بين أصحابه ، يرجىء ابنته « فاطمة » ويقول : « حتى يكتفى الناس أولاً » .. !!

وكتيراً ما كانت الأعطيات تتناقض دون حاجات الآخذين .. ولا تنال فاطمة منها مثلاً ، ففترضى ، وتصبر ، لأن أباها العظيم قد وضع لأهل بيته شعاراً فحواه « أن محمداً وأهله ، هم أول من يجوع ، إذا جاء الناس .. وآخر من يشبع ، إذا شبع الناس » ..
لم يكن هذا السلوك من الرسول عن خصيصة إذن .. لا .. ولا كان تمجيداً للفقر الذي جعله الرسول في بعض أحاديثه ثواب الكفر .

إنما كان :

- تكريماً للدبح ..
- وإعزازاً للبساطة ..
- وتوفيراً للرجل العادي ، الذي هو الأمة ، والشعب ..



. وللإنسان حقوق كثيرة ، لابد من صيانتها ، حتى يستطيع أداء دوره فوق الأرض .
وعلى رأس هذه الحقوق جميعاً :

● حق معاشه ..

● حق ضميره ..

وإن هذين الحَقَّيْن ليكادان يلخصان حقوقه كلها ، تلك الحقوق التي تفتحت عليها أبصار وبصائر الرسولين الكبيرين الكريمين ، محمد ، وال المسيح .

أما حق المعاش ، فيعني تحقيق كافة الظروف الاقتصادية التي تهيئ للإنسان حياة عادلة ، رغيدة . وهو لهذا ، يهدف إلى حماية الإنسان من الاستغلال

والنهب ..

وحماية الثروة العامة التي هي حق الناس جمِيعاً ، من ضراوة المحاباة ، ومن كل فنون السرقة ، والسفه ، والاختلاس ..

لقد دَمَّدَمَ المسيح كثيراً بكلمات لاهبة على أولئك الذين يستمرئون عرق الكادحين : وحقوق العاملين .
أولئك :

﴿الذين يأكلون بيوت الأرامل ، ولِعَلَّهُ يطيلون الصلاة﴾ .

و﴿الذين يظلمون الفَعَلَة ، والحصادين ، بينما صياحهم قد وصل إلى رب الجنود﴾ .

وإنه لجدير بأن يفعل ، وما كان ليترك الظامئين إلى العدل ، يعانون جفاف الحلوق ، واستعار الهجير ، بينما

حفلات من المترفين والمستغلين يتبدّلُون في البحبوحة ،
والظل .

ما كان له أن يصرف نفسه عن هذا الوضع . فإنه ليعلم
أن عاقبة ذلك الخسُرُ والوبالُ للأمة التي يبعث فيها هذا
التمايز الظَّلُوم ..

إنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويمزقها ..

و « كل مملكة منقسمة على ذاتها ،
تُخرب .. وبيت منقسم على نفسه
يسقط » .. !!

لقد كان الوضع الاقتصادي في الجماعة اليهودية أيام
المسيح ، رديئاً ، وقاسياً ..

كان وكلاء « روما » وتجار اليهود ، ورؤساء الكهنة
سواء في التأمر على عرق الكادح ، ولقمة الجائع .
ولقد تفتحت عينا المسيح في طفولته ، وفي شبابه على
السيطرات الباغية ، تسلح ظهور الناس من أجل ضريبة
تأخرها في دفعها .

ولو طال به العمر ، لكان له مع هذه الأوضاع الشاذة
وقفة طويلة ، وحامية .

لكنه رغم السرعة الواضحة التي لبّثها مع دوره العظيم
على الأرض ، وعلى الرغم من المُنْتَهِي القريب الذي تعجل
رحيله ، لم يترك ذلك الوضع دون أن يصحّحه بكلمات
مضيئة وجامعة .

قال لתלמידه الاثنى عشر حين أرسلهم يكرزون
بملكوت الله :

﴿ لا يكن للواحد ثواباً ... ﴾

وهتف طويلاً بكلمات سلفه الشهيد « يوحنا » :

﴿ من له ثواباً فليعطي من ليس له ... ﴾

ومن له طعام ، فليفعل هكذا ...

وذات يوم ، وهو يعبر الطريق وديعاً كأنفاس الزهر في

فجر الربيع ، لقيه واحد من الناس ، وسأله :

﴿ أيها المعلم الصالح .. ماذا أعمل

لأرث الحياة الأبدية ... ?? ﴾

فأجابه :

﴿ لماذا تدعوني صالحاً .. ?? ليس

أحد صالحاً إلا واحد ، وهو الله .

﴿ أنت تعرف الوصايا﴾ .

﴿ لا تزن .. لا تقتل .. لا تسرق ..

لا تشهد بالزور .. لا تسلب .. أكرم

أباك وأمك﴾ .

قال الرجل : « يا معلم ، هذه كلها حفظتها منذ
حدثتني » ..
فأجابه المسيح :

﴿ يُعِزُّكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ ﴾ ..
 ﴿ اذْهَبْ ، بَعْ مَالِكَ ، وَأَعْطِ
 الْفَقَرَاءَ ﴾ .. !!

وهكذا ، فإن ابن الإنسان ، وهذه دعوته ، وهذا منهاجه
 وسلوكته ، لا يمكن بحال ، أن يقر أى نظام يقوم على
 استغلال العرق ، واحتكار الرزق ، وتجميد الثروة ،
 وتعويق فرص المعيشة الكريمة الطيبة ..

■ □ ■

ويجيء محمد رسول الله ، فيصون حقوق العمل ،
 والعرق ، بتعاليم تناهت في الرشد ، والذكاء :
 ﴿ أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ ، قَبْلَ أَنْ يَجْفَ
 غَرْقَهُ ﴾

﴿ لَا تَكْلُفُ الصَّابِيَانَ : بَ .. فَإِنَّكُمْ
 مَتَى كَلَفْتُمُوهُمُ الْكَسْبَ سَرَقُوا ﴾ .
 وحين يكون هذا الأجير خادما ، يرتفع محمد بمستواه ،
 ويعلو ..

﴿ لَا يَقُولُنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي .. وَأَمَتِي ..
 وَلِيَقْلُ فَتَاهِ وَفَتَاهِ ﴾ .
 ﴿ .. هُمْ إِخْرَانُكُمْ فَأَطْعَمُوهُمْ
 مِمَّا تَطْعَمُونَ ، وَأَلْبُسُوهُمْ
 مِمَّا تَلْبِسُونَ ﴾ ..

ولا تكون الثروة مشروعة وحلاً ، إلا إذا كانت من
كسب طيب ..

والكسب الطيب ، هو الذي لا مكان بين وسائله ،
لأنانية ، ولا للاحتكار ، ولا لاستغلال الكادحين
والعاملين .

ولأموال الشعب ، عند محمد حمة جد عظيمة ..
إنه ، ليغفر كل الخطايا ، ويتلمس المعدرة لشتي
الآثام ، إلا الجريمة واحدة ، يرفع في وجهها وفي وجوه
مرتكبيها قصاصاً مشحوناً ..

هذه الجريمة هي : العداوان على مال الشعب .
انظروا ..

أتاه ذات يوم ، رجل ، نادماً يعترف في إسفار بجريمة
« زنا » ارتكبها ..

وبعد أن استمع الرسول لقوله ، أراد أن يفتح له على
المغفرة ، وعلى النجاة نافذة .. فقد لمح من ندمه
الضاغط ، ومن توبته الصادقة ، ما ينبغي بعزم أكيد على
الاستقامة .. ومضى يحاول ثني الرجل عن اعترافه .. كى
يتحلل هو من إنزال العقوبة به ..

ولكن هذا التسامح الرحيب ، يكاد يختفي تماماً ، ليحلّ
مكانه غضب مدمِّم ، وقصاص رهيب .. حين تكون
الجريمة عدواً على أموال الأمة ..

كان له - عليه الصلاة والسلام - خادم - اسمه « رفاعة

ابن زيد ، .. أصابه في إحدى الغزوات سهم فأنهى
حياته ..

وبعد انقضاض القتال ، أقبل أصحابه عليه يعزونه في
خادمه ، وقال قائلهم :

﴿ هنيئاً له ، يا رسول الله .. لقد ذهب
شهيداً ﴾ .

فأجابه الرسول في أسى :

﴿ كلا .. إن الشملة التي أخذها من
المغائم يوم خير ، لتشتعل عليه
ناراً ﴾ .. !!

رأيتم .. ؟

إن هذه الشملة ، ما دامت جزءاً من غنيمة ، أو فيء ،
ليست ملكاً لأحد .. إنها حق الجماعة كلها ، حتى ينال كل
حظه ونصيبه .

ولقد أخذها الغلام ، وما تساوى أكثر من دراهم قليلة .
ولقد خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات شهيداً ..
ومع هذا كله ، بقى مطوقاً بوزره الصغير .

ولكن ، من قال إنه وزر صغير .. ؟ ..
إنها السرقة .. يستوي فيها القروش الضئيلة ..
والملابس الكثيرة . سيما حين تكون سرقة أموال عامة .
ويعلم الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً ، أن أحد

الولاة ، قبل هدية .. فيغضب غضباً شديداً ، ويستدعيه
إليه ، فيأتي حثيثاً .. ويسأله الرسول صلى الله عليه
 وسلم :

— كيف تأخذ ما ليس لك بحق ..؟؟
ويجيب الوالي معتذراً :

— لقد كانت هدية ، يا رسول الله .
ويسأله الرسول :

﴿ أرأيت ، لو قعد أحدكم في داره ،
ولم نُوله عملاً ..

أكان الناس يهدونه شيئاً ﴾ . ؟ !

ويأمره أن يرد الهدية إلى بيت المال .
ثم يعزله عن ولايته وعمله . !

هكذا أعطى المسيح ، وأعطى الرسول حق المعاش
للإنسان ، من عنایتهما ، ومن تعاليمهما ، ما يجعل العمل
من أجل التوزيع العادل للثروة .. والتوفير الكامل للرخاء .
واجباً محتماً على المؤمنين بهما ، السائرين على
نهجها .

والآن .. إلى حق الضمير .



لست أعني بالضمير هنا ، الوظيفة النفسية التي نسير
في الإنسان الندم على شر ارتكبه ، أو تحفظه إلى خير
تقاعس دونه .

إنما نعني بالضمير الإنساني في مقامنا هذا ، غاية
أبعد ، ومعنى أرحب ..
نعني به في عبارة واحدة موجزة : « الإنسان في
وجوده الحقيقي ». .

هذا ، هو الضمير الذي سنرى الآن كيف حمى المسيح
حقه ، ورفع محمد لواءه .

إن الذي قال : « لم يخلق الإنسان من أجل السبت ،
وإنما خلق السبت للإنسان » ، جدير بأن يكون صاحب
فضل عظيم في تحرير الضمير البشري ..

ولقد قالها المسيح .. ولا أكاد أعرف عبارة تلخص
حقوق الضمير البشري ، وتعلن جلاله . أوفى من هذه
الحكمة الفذة العظيمة ..

ولنبدأ من البداية ..

حين تقدم المسيح ليعاني دوره العظيم ، ويبلغ
رسالات ربه . كان الضمير الإنساني في تلك الرقعة من
الأرض التي يسير عليها ، مصطفاً بأغلال مبهمة ، وثقيلة ..

كانت « المساومة » تتحقق ، وتذلل ..

فكل سكينة نفس .. كل طمأنينة قلب ..

كل مغفرة ترجى .. كل فضيلة تلتمس ..

كل حرية تراد .. يتغاضى عنها رؤساء الكهنة
أجراً .. !!

كل عطاء ديني بثمن .. دخول الهيكل بثمن .. التماس
البركة بثمن .. الصلاة للرب بثمن .. !!

وهكذا يتزلف الضمير في لوثات مساومة موحلة ،
ومتاجرة مسغورة .. حتى تحول إلى « الله حاسبة » كل
عملها ، أن تحصي موبقات أصحابها .. ثم تحصي أثمان
مغفرتها ، وكفارتها .. !
هذا ، أول .

• كذلك كان الضمير « مُجَمِّداً » لحساب أهواء ،
وتقاليد ، وطقوس ، لا تسمح له بمناقشتها ،
ولا باستحسان غيرها ، حتى لو يكون خيراً منها ..
ويرزح تحت وصاية غبية ، يقيمها حرّاس هذه التقاليد
وسذناتها .

وهكذا عاش الضمير في كبت قاتل ، لا يملك حق
المعارضة ولا حق التعبير عن نفسه .
لا يستطيع أن يناقش مساوىء الحكم ، لأن حكام
« روما » وجنودها ، لا يرحمون من يفعل .
ولا يجرؤ أن يناقش خرافات الكهان ، وضراوة

التقاليد ، لأن الكهان أشدّ قساوة وغلظة .
• وشيء آخر .. فالضمير البشري في هذه البيئة ، كان
يعاني اختناقًا مريراً ..

كانت عنصرية ضيقة عطينة ، تحبسه داخل كهفها
المظلم ، بعيداً عن هواء التسامح المنعش ، والإخاء
الرطيب الحاني .. ذلك أن « شعب الله المختار » كما كان
اليهود يسمون أنفسهم ، يعيش داخل مركب نقص شنيع ..
يوحى إليه دائمًا أنه خلق ليحكم العالم ، ويسود الأرض ..

وأنه أشرف من كل الأجناس ، والألوان ، والأمم ..
وأنه ينبعى ، بل يلزمـه أن يصون ذمـه وسلامـاته عن
القلـوث بالدـخلاء !!

والدخلاء ، هـم جـمـيع بـنـى آدمـ من غـير اليـهـود !!
ولـا شـئ يـفـنـى الضـمـير الإـنـسـانـى ، ويـمـحـقـه مـثـل تـفـكـيرـ
من هـذـا النـوع ، وـحـيـاة مـن ذـلـك الطـراـز .

وـالـآن ، يـتـقدـم « رـوح الله » المـسـيـح عـيسـى اـبـن مـرـيم ،
ليـحرـر ضـمـير الإـنـسـان فـى تـلـك الرـقـعـة ، وـفـى ذـلـك الزـمـان مـن
وـيـلـات أـسـرـه ، وـظـلـمـات سـجـنـه .. ولـتـنـظـلـ كـلـماتـه وـمـوـاقـفـه
الـتـى سـيـحرـر بـهـا الضـمـير ، دـسـتـورـا حـافـزاً مـضـيـئـا لـكـلـ
الـبـقـاع .. وـكـلـ الـأـزـمـان .. !

بـدـأ ، فـأـنـقـذـ الضـمـيرـ من وـطـأـةـ الـمـساـوـمـةـ ، وـحـرـرـهـ مـنـ
رـبـقـةـ النـفـعـيـةـ .

وـإـذـا كـاتـتـ هـذـهـ الـمـساـوـمـةـ ، تـعـتمـدـ عـلـىـ التـخـوـيـفـ
الـدـيـنـيـ ، وـتـسـتـغـلـ الضـعـفـ الإـنـسـانـىـ ، أـدـنـاـ اـسـتـغـالـ .. فـقـدـ
بـدـأـ عـمـلـهـ مـنـ هـنـاـ ، بـبـعـثـ الثـقـةـ فـىـ رـحـمـةـ اللهـ وـمـغـفـرـتـهـ ..
كـمـاـ دـغـدـغـ ضـرـاوـةـ الشـعـورـ الحـادـ بـالـذـنـبـ حـينـ يـكـونـ هـذـاـ
الـذـنـبـ فـرـديـا ..

أـمـاـ حـينـ يـكـونـ إـثـماـ « جـمـاعـيـاـ » ، أـمـيـلـةـ « طـبـقـةـ »
خـاصـةـ ، تـحـقـقـ لـهـذـهـ طـبـقـةـ نـفـعـاـ ، أـوـ اـمـتـيـازـاـ ، أـوـ سـلـطـانـاـ
غـيرـ مـشـروعـ .. فـإـنـهـ يـدـمـدـمـ ، وـلـاـ يـتـسـامـحـ ..
حـدـثـ الإـنـسـانـ الـضـعـيفـ ، عـنـ « الـأـبـ السـمـاـوـيـ » ..
الـربـ الـبـارـ الرـحـمـنـ الرـحـيمـ :

﴿ .. من منكم - وهو أب - يسأله ابنه
خبزاً ، فيعطيه حجراً .. أو سمكة ،
فيعطيه حية .. أو بيضة ، فيعطيه
عقرباً .. ?? ﴾

﴿ فإن كتم - وأنتم أشرار - تعرفون أن
تعطوا أولادكم عطايا جيدة .. فكم
بالحرى أبوكم الذي في السماوات .
يهب خيرات للذين يسألونه ?? .. ?? ﴾

وتأتيه الخاطئة ، يزفها الكهنة والجلادون فيلقى عليها
نظرة طيبة أسيبة يلمح خلالها الضعف الإنساني الكامن في
كل إنسان .. ثم يرفع بصره صوب غلاظ الأكباد ، قساة
الضمائر ، وقد ملأوا أيديهم بالحجارة الحادة تاهباً
لرجمها ، فيقول لهم كلماته المأثورة :

﴿ من كان بلا خطيئة ، فليرمها
بحجر .. ! ﴾

وعلى الرغم من هدوء كلماته هذه ، فقد نفذت إلى
أفئدتهم كرصاص مقذوف ..
وتمثلت لهم خططيتهم .. وإذا احتواهم ذهول وخزي ..
التفت هو نحو المرأة وسألها :

﴿ هل دانك أحد ?? ?? ﴾

وأجابته :

كلا ، يا معلم .

فيقول لها ، وهو يخاطب فيها الضمير البشري القابع المفتوح تحت وطأة إحساسه المذل بالخطأ :

﴿ ولا أنا أدينك .. اذهبى ،
ولا تخطئى ﴾ . . !!!

إنه موقف جدير بابن الإنسان .. ابن الإنسان الذي جاء ليخلص الأنفس لا ليهلكها ..
وأولئك المدفونون أحياه تحت ركام الخوف ، والهول ،
والخطيئة جديرون بيده الحانية الرحيمة ، تأخذ بهم في رفق كبير إلى إله طيب ، بر ، كريم ..
وليس معنى موقفه هذا إباحة الإثم ..
أبدا .. فهو لا يفتا يذكر بحق أنفسنا علينا ، بل ويعلمنا أن الخطيئة نفسها جزء من الأغلال التي يرسف فيها وجودنا ، علينا ، ونحن نحررها ، أن نفطمها عن نزولاتها .

﴿ ماذا ينسع الإنسان لوربح العالم
كله ، وأهلك نفسه أو خسرها ﴾ ..
لكنه ، وهو يدعونا لتحرير أنفسنا من الإثم ، إنما يفعل هذا بروح أخ ودود .. لا جلاد كثُود ..
لكانه ، وهو يرمي « الخطئة » بنظرته الوديعة ، كان يسأل نفسه :

إذا نحينا عن هذه ، وصف « الخاطئة » .. فماذا
يبقى .. ؟

يبقى الإنسان .. !!

حسن هذا .. وكل البشر إذن كذلك .

وإذن مرة أخرى ، فلا ينبغي أن نسحق أرواحهم
وضمائركم وجودهم باللوم القاتل .. إنما علينا أن نوقظ
فيهم « الإنسان » ليطرد عنهم « الشرير » !! ..

ذلك منهاج ابن الإنسان الذي لم يأت ليطبب الأصحاء .
بل ليعالج المرضي والذي لم يأت ليدعوا « أبراراً للتوبة » ،
بل خطائين » .

والآن نشهد موقفاً آخر له ، فتغمرنا حرارة مودته ،
ودفء حنانه .. ونجد فيه الأب ، والأخ ، والصديق .
والقلب الكبير .. الكبير .. السفوح .. السفح .
ذات يوم دعاه أحد الفريسيين إلى طعامه ، وإذا هو
جالس ينتظر الطعام . اقتربت عليه الدار في اضطراب
وتعثر ، امرأة

لم تكن تبصره حتى أكبت على قدميه تغسلها
بدموعها . ثم تجففهما بشعر رأسها . ثم تعود فتضمخ بهـ
ـ بعطر كان معها .

ويجيء الفريسي من داخل داره ، فيرى المشهد
ويبصر المرأة فيعرفها .. إنها واحدة من بائعات اللذة
والهوى ..

ويفرك يديه مسروراً ، فهذه فرصة جد طيبة لاختبار
المسيح ، فإن يك مسيحاً حقاً ، فسيعلم الآن ، من هذه
ـ التي تلمسه ، وتقبل قدميه .

ويقرأ المسيح حديث نفسه هذا .. ويلقي عليه ، وعلى الدنيا كلها درساً ، موجهاً الحديث إلى تلميذه « سمعان » . فكان ساعتئذ معه :

﴿ يا سمعان ... ﴾

﴿ عندي شيء ، أقوله لك ﴾ .

﴿ قل ، يا معلم ﴾ .

ويستأنف المعلم العظيم حديثه :

﴿ كان لِمُدَّاينٍ مَدِيْوَنَانْ ﴾ .

﴿ على أحدهما خمسمائة دينار ..

وعلى الآخر خمسون . وإذا لم يكن لهما ما يوفيان ، سامحهما جميعاً ﴾ .

﴿ فقل : أيهما يكون أكثر جباً له ﴾ ؟؟؟

ويجيب « سمعان » :

﴿ أظن ، الذي سامحه بالأكثر ﴾ .

ويقول السيد المسيح :

« بالصواب حكمت » .

ثم يلتفت شطر الإنسان ، شطر المرأة الخاطئة .. التي ذهب عنها « الشرير » ، وبقى فيها « الإنسان » ، ويقول لها وعلى شفتيه الودودتين ابتسامة كضوء النجّار :

﴿ إيمانك ، قد خلّصك ﴾ ..

﴿ اذهبى بسلام ﴾ .. !!!

■ □ ■

أى قلب ذكي ، كان يحمله يسوع .؟؟
وأى بَر بالضمير الإنساني أُسخى من هذا البر .؟؟
أى صداقه ، تشدُّ أزر الإنسان في ضعفه ، أوفى من هذه
الصداقه .؟

وموقف آخر ، يُعمق به هذا الفهم في وعي الناس ،
ويطالبهم أن ينتهجوه ، ويتحذوا منه سلوكاً .
يُسأله « بطرس » :

« كم مرة يخطيء إلى أخي ، وأغفر له ؟ هل إلى سبع
مرات ؟ »

ويجيبه المسيح :

﴿ لا أقول لك إلى سبع مرات ، بل إلى
سبعين مرة ﴾ .

وعلى طريقته العذبة السديدة ، يضرب مثلاً ، فيقول :
﴿ يشبه ملکوت السموات ، إنساناً
ملكاً ، أراد أن يحاسب عبيده .. فلما
ابتدأ في المحاسبة ، قدم إليه واحد
مليون عشرة آلاف وزنة .. وإذا

لم يكن له ما يوفى ، أمر سيده أن يُباع
هو ، وامرأته ، وأولاده ، وكل ماله ،
ويوفى الدين ..)

) فخرَ العبد وسجد قائلاً : ياسيد ،
تمهل على ، فأوفيك الجميع .
) فتحنَ سيد ذلك العبد ، وأطلقه ،
وترك له الدين .)

) ولما خرج ذلك العبد ، وجد واحداً
من العبيد رفقاءه ، كان مديوناً له بمائة
دينار ، فامسكه ، وأخذ بعنقه قائلاً :
أوفني مالى عليك . .

) فخرَ العبد رفيقه على قدميه ، وطلب
إليه قائلاً : تمهل على فأوفيك
الجميع . . فلم يردد ، بل مضى وألقاه
فى سجن حتى يوفى الدين .)

) فلما رأى العبيد رفقاؤه . . ما كان ،
حزنوا جداً ، وأتوا وقضوا على سيدهم
ما جرى .)

) فدعاه حيئذ سيده ، وقال له : أيها

العبد الشرير ، كل ذلك الدين تركته لك ، لأنك طلبت إلى .. أَفْمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْكَ أَنْتَ أَيْضًا ، ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا ﴿ .. ? !

وهكذا يقيم المسيح بين الناس تكافلاً وتضامناً ، ضدّ الآثام ، التي هم فيها سواء ، وشركاء .. وضدّ وطأتها الضاغطة على الضمير البشري ، حين تُتَخَذُ أداة تحذير له ، وإذلال :

﴿ إن فرح السماء بخطاقي واحد يتوب ، أكثر من تسعة وتسعين باراً ، لا يحتاجون إلى توبة ﴾ ! .
﴿ اغفروا إن كان لكم على أحد شئ - لكي يغفر لكم أيضاً أبوكم الذي في السموات ﴾ .

وماذا صنع المسيح بثانية الآثافي التي كانت تتدغدغ الضمير الإنساني وتؤوده .. وهي حرمانه من حق الشكوى والمعارضة ؟ !

لقد كان موقفه من هذه عظيماً وحاسماً ، مثل مواقفه جميعاً ..

ولقد رأينا من قبل ، كيف واجه رؤساء الكهنة ، والكتبة ، والفرسانيين ، أمام الحشود من الناس .. وكيف

سخر منهم ، وناداهم : يا أولاد الأفاسى .. وهم الذين
تعودوا تقديساً مطلقاً ، أو شبه مطلقاً !! ..
لقد كان المسيح بخطبته تلك ينادى الضمير السجين
إلى تمرد مشروع .

وحيث كان يأخذ طريقه إلى الهيكل ، ووجد الباعة ،
والصرافين ، والكهان المحترفين ، يملأون رحابه .. أقبل
عليهم ، يكفاً موائد الصيارة ، ويبيعثر سلعهم ، وينادى :
﴿ مكتوب ، إن بيتي بيت صلاة ، وأنتم
جعلتموه مغاربة لصوص ! ﴾

ثم يهز رأسه في غيظ مضطرب ساخر ، لكنه وديع ،
ويقول :

﴿ يا أولاد الأفاسى !! .. !! ﴾

وهو يرسم لتحرير الضمير نهجاً قوياً حين يقول :
﴿ تعرفون الحق .. والحق
يعحركم . ﴾

الحق يحررنا .. ؟

ما أوعاها عبارة ، وما أغناها حكمة .

ليس الهوى ، ولا القوة ..

إنما هو الحق وحده ، القادر على أن يهب الإنسان
تحرراً صادقاً ، رشيداً ، لا زيف فيه ولا تأويل .
وأمام الحق ، لا يجوز لشيء ما ، أن يقف ، ويتشامخ .

ولسوف يضرب المسيح لهذا مثلاً من سلوكه حين يتحدى عقيدة «السبت» تحدياً أخذاً .. وبذلك يبعث «حق المعارضة» بعثاً عظيماً ويهب الضمير البشري خلاصاً أكيداً .

قرأتم في الصفحات الأولى من هذا الكتاب ، أن اليهود تركوا «أورشليم» تسقط في أيدي الغزاة السلوقيين .. عندما اختاروا لمحاجمتها يوم سبت .. وأثر اليهود سقوطها على أن يقاتلوا يوم السبت ، حيث تمجد البطالة وتقدس الراحة .. !

وهذا ، يشير إلى مدى ما كان لخرافة السبت في أفشلتهم وفي عقولهم من رسوخ وولاء .. إنهم - يوم السبت - لا يكرزون ، ولا يعالجون .. ولا يعملون عملاً .

فإذا جاء من يتخطى هذا كله : فيكرّزهم يوم السبت ، ويعظ ويداوى .. فقد ضرب التقاليد الضاربة ، ضربة قضية .. وفتح للضمير المفدوح بثقلها الجاثم ، وجوّها الخانق الآسن ، نافذة على الأفق المشرق ، والهواء النقى .

ولقد فعلها المسيح ، ولم يقم وزناً لثورة الكهان ، والفرّيسين ، بل جعلهم بسخريتهم الذكية صغاراً مبهوتين .. !

جاءته امرأة -في يوم سبت تعاني علة موجعة ، فمنحتها المسيح من روحه ما غالٍ به مرضها ، ووُجدت بسببه البرء ، والعافية .

ووُجدها رئيْس المجمِع فرصة مواتية ، ليَشُّن على
المسيح هجوًّا « مقدساً » .. !

واقترَب منه ، والناس يسمعون ، وقال له :

﴿ كِيف تُبْرِئ فِي يَوْم السَّبْت ﴾ .. ؟

وأراد المسيح أن يلقنه درساً لا يفتق منه ، فقال موجهاً
الخطاب إلى مقامه الكنوتي الرفيع .. !!

﴿ يَا مُرَائِي ﴾ ..

﴿ أَفَلَم سُقْط حَمَارك فِي بَشَر يَوْم
السَّبْت ، أَنْقَذْتَه وَأَبْرَأْتَه ﴾ ..

﴿ وَحِين يَمْرُض إِنْسَان ، تَرْكَه فِي عَلَتِه
إِلَى يَوْم الْأَحَد ﴾ .. ?? !!

أهناك كلام يقال في هذا المقام ، أتعذب ، وأمتع ،
واروع ، وأنفذ من هذا الكلام ؟ .

ومرة أخرى ، أرادوا أن يلوموه ، لأنَّه يكرز في يوم
سبت .. فأجاب بعبارة الجامعة :

﴿ إِنَّمَا خَلَقَ السَّبْت مِنْ أَجْلِ إِنْسَان ،
وَلَم يَجْعَلِ إِنْسَان مِنْ أَجْلِ
السَّبْت ﴾ .. !

إنَّ إِنْسَان عند المسيح . هو الشَّمْس الَّتِي تَدُور حَوْلَهَا
قوانين المجتمع وتسير ..

وإن له عنده لمكانة عظمى ..

﴿الحق أقول لكم﴾ ..

﴿إن من قال لهذا الجبل ، انتقل ،

وانطرح في البحر .. ولا يشك في
قلبه .. بل يؤمن أن ما يقوله يكُون ..

فمهما قال ، يكون له﴾ .. !! ..

وهو إذ يضع عن الضمير الإنساني بذخ السلطان ،
وضراوة التقاليد .. وإذ يقيمه في مكان الند والنظير لكل
سلطة أخرى على الأرض ، فيناقش كما ناقش المسيح ،
ويعارض مثلما عارض ، ويعترض بالحق ويتباهي ، كما اعتز
المسيح به وتبعه ..

هو إذ يفعل هذا ، لا ينسى أن يوصي تلامذته الذين
يتمثل فيهم الضمير الناشيء المستيقظ ، ألا يتحولوا يوماً
ما ، إلى سلطة تعوق الضمير . وتكتبه من جديد
بما تنتهجه من غطرسة ، وضعف ، واستعلاء . استمعوا
له ، وهو يقول لهم :

﴿أنتم تعلمون أن الذين يحسبون

رؤساء الأمم ، يسودونهم .. وأن

عظماءهم ، يتسلطون عليهم ..

فلا يكون هذا فيكم﴾ ..

﴿بل من أراد أن يصير فيكم عظيمًا ،

يكون لكم خادماً ..
 » ومن أراد أن يصير فيكم أولاً ، يكون
 للجميع عبداً ..
 » لأن ابن الإنسان أيضاً ، لم يأت
 ليُخدم ، بل ليخدم ، وليبذل نفسه فديةًّا
 عن كثيرين .. .



وأما الوصاية التي كان يفرضها على الضمير الإنساني
 جماعة المنتفعين بالتقاليد الغاربة ، والأساطير الضحلة ،
 فقد ألغها المسيح بعبارة حاسمة .. وذلك حين قال واحد
 من الجمع .

يا معلم ، قل لأخى يقاسمنى الميراث ..
 فإذا هو يجيب :

» يا إنسان ، من أقامنى عليكما
 قاضياً ، أو مقسماً .. ؟ !
 إنه موقف يغنى عن مواقف .. وإنها عبارة تمثل
 دستوراً .

إن المسيح بها ، يسلم الضمير وثيقة رشهه ويدعوه
 لمواجهة مسئoliاته ، بعيداً عن كل وصاية متطفلة ..



والآن ، إلى موقفه من الآفة الثالثة ، التي كان الضمير الإنساني يعانيها في البيئة التي جلجلت فيها كلمات روح الله .

هذه الآفة ، هي العنصرية .

كان « شعب الله المختار » " يعيش كما قلنا من قبل ، داخل عقده هذه . منطويًا على نفسه . وعلى نوایاد الرديئة جداً ، ضد الناس جميعاً ولكن ، قبل أن نستطرد في حديثنا هذا يحسن أن نعرف علاقة الضمير بالعنصرية .

لقد ذكرنا حين بدأنا الحديث عن الضمير الإنساني ما نعنيه بهذا الضمير .

وقلنا إننا نعني به « الإنسان في وجود الحبيب ، والوجود الحقيقي للإنسان . يعني التعبير الكامل عنه ، وفتح الطريق أمام طاقاته . وإمكانياته والإنسان .. هو : الإنسان لا قيمة لاختلاف اللون ، واختلاف اللغة . واختلاف القوم .

وإذا كان الناس خلال تطورهم ، قد عاشوا أمماً وشعوبًا فإن شيئاً أسمى من ذلك يُظلم . ويحتويهم داخل إطاره ، ويناديهم إلى نفسه .. هو الإنسانية . والعائلة البشرية ، حقيقة موجودة منذ وجد الإنسان .. ولكن ظهورها كواقع يتطلب ضرورة .. على الإنسان أن يعمل من أجل توفيرها ، ومن أجل تغْيُّل ميقاتها .. وفي هذا

يتتحقق المفهوم الصحيح لاسمِهِ، ويتبدي الوجود
الحقيقي لهُ.

وإذن فكل تضليل له عن هذا الهدف ، وكل تقاعسٍ به
عن تلك الغاية ، يعتبر انتزاعاً له من وجوده الحقيقي ..
وبالتالي فهو انتهاك لحقوق الضمير الإنساني الذي عرَفناه
من قبل بأنه « الإنسان في وجوده الحقيقي » ..

ونعود لحديثنا الأول .. حيث كنا نقول إن اليهود كانوا
يعيشون في « قوقة » معتمة ، من عنصرية حالية .
وتحرير الضمير الإنساني ، يتطلب تمزيق هذه
القوقة . وتسريح هذه العنصرية .. أو بتعبير آخر ..
فإن هدم هذه العنصرية يعتبر عملاً جليلاً ، ونافعاً
بالنسبة لتحرير الضمير البشري
فماذا فعل المسيح تجاه هذا الأمر .. ؟

اقرأوا .. واعجبوا ..

كان يكلم الجموع يوماً ، وإذا أمه وإخوته ، يجيئون ،
ويذهب من يقول له : أمك وإخوتك يريدون أن يتحدثوا
إليك .

فيجيب :

﴿ من هى أمى .. ومن هم
إخوتي ﴾ .. !

ثم يبسط كفه المضيئه صوب تلامذته ، ويقول :

﴿ ها ، أمى ، وإخوتي .. لأن من
يصنع مشيئة أبي الذى فى السموات ،
هو أخي وأختى وأمى ﴾ . !!



ويسلب من اليهود المفهوم الزائف المزور ، الذى
يبررُون به عنصريةِهم المسورة .
لقد كانوا يعتمدُون على وعد يزعمون أن الله - أعطاه
لإِبراهيم .. ويفسرون هذا الْوَعْدُ تفسيراً يرضي غرورهم ،
وعنصريةِهم ، وطمعهم في احتلال الأرض كلها .. !
كما كانوا يتبذّرون على الناس بأنهم أبناء إِبراهيم ..
فانظروا ، كيف يجردهم من هذه ، ويتركهم عراة .. !
﴿ يا أَوْلَادُ الْأَفَاعِي ﴾ ..

﴿ لا تقولوا لنا إِبْرَاهِيمُ أَبَا .. لَأَنِّي أَقُولُ
لَكُمْ : إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يَقِيمَ مِنْ هَذِهِ
الْحَجَارَةِ أَوْلَادًا لِإِبْرَاهِيمَ ﴾ ..

﴿ وَالآن .. قد وضعتِ الْفَأْسَ عَلَى
أَصْلِ الشَّجَرَةِ ﴾ ..

﴿ فَكُلْ شَجَرَةً لَا تَصْنَعْ ثَمَرًا جَيْدًا ،
تَقْطَعْ وَتَلْقَى فِي النَّارِ ﴾ .. !

يا لصدق الكلمات ، ويا لروعتها ..

إن انتسابكم لإبراهيم لا يفيدكم شيئاً مالم تكونوا مثله صالحين .

وليس هناك بشرٌ أفضل من بشر .

ولكن ، هناك شجر يعطي ثمراً جيداً فيسوقى ، ويزدهر .. وشجر يعطي ثمراً رديئاً ، فهذا له الفاس ، تجتنبه ، وتبيده .

فيما أيها اليهود ، تحولوا إلى شجرة طيبة ، إذا أردتم أن تعيشوا ، وتحيوا ..

رأيتم .. ؟؟

رأيتم إلى « يسوع » العظيم ، وهو يكافح العنصرية ، ليحرر القبمیر الإنساني من ربقتها .. ؟ الم يكن الدرس في أوانه ، وفي مكانه ، حين قاله وألقاه .. ؟

والليس ، يجيء في أوانه مرة أخرى ، حين فردهه اليوم ، ونرويه .. ؟؟ !

وفي مثال عذب فاتن حكيم ، يخرج الناس من قوقة العنصرية ..

﴿ ليس أحد يوقد سراجاً ، ويغطيه بإياء ، ويضعه تحت سرير ﴾ ..

﴿ بل يضعه على منارة ، لينظر الداخلون النور ﴾ .. !

ذلك الأمم ، والشعوب ..

كل أمة تملك نوراً .. تملك علماً .. تملك ثروة .. تملك ذكاء ليس من حقها أن تنطوي عليه . بل تضنه على الممارسة .. تقدمه في غير من ، وفي غير أذى للبشرية كلها .. فنحن جميعاً عائلة واحدة فوق هذا الكوكب .
الرحيب .

ويوجه للعنصرية ضربة مباشرة في حكمة يرويها ، ومثل يضربه .. وذلك حين سأله سائل : من قريبي .. ؟؟
فأجاب :

﴿ كان رجل مسافراً من أورشليم ، إلى أريحا .. وكان الطريق محفوفاً بأخطار اللصوص ، وقطاع الطرق .. فنصحته زوجته بالترىث حتى يجد من يرافقه في سفره .. وإذا ذاك انبرى ابنه الصبي يقول : إن والد صديق له يزمع السفر .

في نفس الطريق ..

﴿ وكان الآخر ، سامرياً ، فلم يكدر الأب يعلم هذا ، حتى انتفض كمن لدغته عقرب ، وصاح بابنه : كيف تصادق ابن سامری نجس .. ؟
أما تعلم أن السامريين تصاهروا مع

العجم منذ مئات السنين . ؟ إن فعلتك
لو عُرِفت ، لأثرت في عملي
وتجاري) .

﴿ ورفض الرجل اقتراح ابنه الصغير ،
وسافر منفرداً . فهاجمه اللصوص في
الطريق . وسلبوه ماله وثيابه ..
وأصابوه بجروح ، ثم تركوه بين حى
وميت) .

﴿ ومر به كاهن ؛ فرأه .. لكنه تغاضى
عنه . ومضى في طريقه) ..
﴿ ثم مر به رجل من عشيرته ، فتجاهله
وواصل سيره) ..

﴿ وأخيراً ، مر به « سَامِرَى » ، فعطف
عليه ، وتوقف ، فغسل جراحه ودهنها
بالزيت . ثم أركبه على دابته ، وأوصله
إلى فندق ، وأوصى صاحب الفندق أن
يعتنى به .. ثم نفخه مالاً كدفعة أولى ،
على أن يتراكم بقيمة النفقات فيما
بعد) ..

قصَّ المسيح هذه القصة ، وضرب هذا المثل ، ثم أتبعه بسؤال : « أى هؤلاء ، يكون قريباً للمسافر » . ؟ فأجاب الرجل :

« من صنع معه الرحمة » .

هنا قال المسيح :

« إذن ، اذهب ، وافعل هكذا » . !! ..

لقد جمع المسيح في هذا المثال كل ملامح العنصرية الشائهة .. كما ساق في نفس المثال ، العنصرية إلى معركة خرجت منها خاسرة منهوكة .. إن يهود « أورشليم » كانوا في قطبيعة مع السامريين ، لأنهم أصهروا إلى العجم . !

هنا يكشف المثال عن إيمانهم في العنصرية .
وكانوا - أى يهود أورشليم - يحاربون من بنى جلدتهم كل من يعامل السامريين ، أو يخالطهم ..
ولكن ، حين وقع الرجل فريسة لقطاع الطريق ، الذين ربما كانوا يهوداً من بنى جنسه .. مرّ به « كاهن » .. فلم يهتم بأمره .. !

ومر به « سامي » .. أى واحد من الذين يمقتهم ويقطعنهم ويعتبرهم رجساً ونجاسة .. فسارع إليه ، وغسل جراحه ، ودهنها بالزيت ، ثم حمله على دابته إلى فندق .. حيث استأجر له فيه مكاناً طيباً مريحاً .. !!
هذا ، هو القريب ، والصديق إذن ..

الذى يفعل الخير ، ويبذل العون ، مهما تكن جلدته ..
 مهما يكن معدنه وقومه ..
 وهكذا يرکي المسيح ، الإخاء الإنساني ، ويحطم سدود
 العنصرية المنحرفة ، المعتبرة .
 فالناس جميعهم لدى المسيح إخوة .. وإخوة ضعاف ،
 يستحقون العون ، وبذل ذات اليد ، والنفس .. وإنه
 ليصوغ هذه الوجهة . فى نبأ جليل ، فيقول :
 » .. ومتى جاء ابن الإنسان فى
 مجده ، وجميع الملائكة القديسين
 معه .. فحيثئذ يجلس على كرسى
 مجده .. ويجتمع أمامه جميع
 الشعوب .. فيميز بعضهم من بعض -
 أى يعزل صالحها عن فاسدها) ..
 ثم يقول الملك للذين عن يمينه :
 تعالوا يا مباركى أبى .. رثوا الملائكة
 المعبد لكم منذ تأسيس العالم .. لأنى
 جعت فأطعكمونى .. عطشت
 فسكنتكمونى .. كنت غريباً
 فأوتيتمونى .. عرياناً فكسوتكمونى ..
 مريضاً فزرتمونى .. محبوساً فأتيتم
 إلى) .. !

﴿ فيجيبه الأبرار حيثذاك قائلين : متى
رأيناك جائعاً فأطعمناك . . ؟ أو عطشاناً
فسقيناك . . ؟ ومتى كنت غريباً
فآويناك . . ؟ أو عرياناً فكسوناك . . ؟
ومتى رأيناك مريضاً ، أو محبوساً فأتينا
إليك ﴿ . . ؟؟

﴿ فيجيب : الحق أقول لكم . . بما
أنكم فعلتموه بأحد إخوانى هؤلاء
الأصغر ، فبى فعلتم ﴿ . . !!

لم يقل بما أنكم فعلتموه بقومى .. بشعبى .. بيهود
أورشليم ..

بل قال : بأحد إخوانى :
وإخوانه ، كما قال من قبل ، هم الذين يعملون مشيئة
الرب . بغضّ النظر عن جنسيتهم ، وأرائهم ..
ومشيئة الرب ، أن يعيش الناس إخواناً .. احراراً ..
خيرين .. سعداء ..

هذا - فى إيجاز - هو موقف المسيح من الضمير
الإنسانى .

فهل نتجه الآن إلى محمد رسول الله ، لنطالع موقفه من
الضمير الإنسانى أيضاً .. ؟؟
وإنه لموقف باهر ، وعظيم .



﴿ هَلَا شَقَّتْ عن قَلْبِه ﴾ .. ؟

لو كننا هناك ، ومحمد رحمة الله للعالمين ، يلقى هذه العبارة ، لرأينا مشهداً عجيباً .. !

ولرأينا ، وهو ينشيء لحقوق الضمير الإنساني « برج حراسة » شاهق الارتفاع ، محكم النظارات ..
لقد ذكرنا من قبل أن الضمير كان مفدوحاً بوطأة آفات

ثلاث :

● المساومة والتخويف .

● الإذعان الذي يحظر عليه النقاش والمعارضة ،
ويُلزمه بالخضوع لوصاية منهكة ..

● العنصرية التي تحرمه من تحقيق وجوده
الصحيح ، داخل إخاء إنساني رحيب .

وأمام هذه الطواغيت الثلاثة ، التي رأيناها - قبلًا -
كيف أبلى المسيح في مكافحتها ، وقف محمد ليجهز
عليها ..

ولسوف يمضي كما مضى أخوه عيسى .. يرسل في مثل
سنا الفجر . تعاليمه ، ويدعو في رفق لاحترام الضمير ..
وترک الإنسان يحيا داخل وجوده الحقيقى ..

وحين يتطلّل الشر أمامه ، ويتشامخ ، فلن يدعه يتمكّن
منه ويعتاق زحف النور الذي معه .. بل سيلقاه بالجواب
الأشد .. ويُضع رأسه العتيق تحت حد السيف .

وحتى حين يتمثل هذا الشر في قوى عارمة رهيبة ،

لإمبراطوريتين كُبْرَيَّين ، كفارس ، والروم .. تواصل دعوة
محمد زحفها لمطاردته .

ومن خلال هذا كله .. التعاليم المتسالمة ، ومعارك
المقاومة .. تيزع حقوق الضمير على نحو جليل وفاذ .
﴿ولنبدأ من البداية﴾ ..

كان الناس يعبدون الأصنام ، ويستقسمون بالأزلام ،
ويزجرون الطير ، ليستبطوا منها في سذاجة أمر
مستقبلهم ، وخفايا غيبهم .
وجاء محمد ليحرر هؤلاء الناس .
ماذا فيهم سيحرره .. ؟

سيحرر عقولهم من الخرافة ..
ويحرر وجاداتهم من الإفك ..
وينقذ وجودهم من الضياع ..
وينشر دعوته ، ويبلغ رسالته ربها .. ويصير له أصدقاء
مؤمنون ، وأعداء مكذبون .

و ذات يوم ، يجيئه أحد أصحابه مستأذناً في طرد واحد
يعتقد أنه منافق يتظاهر بالإسلام ليؤذى المسلمين ،
ويخفى في نفسه مُوجِّدةً وشراً ..
وتقدم من الرسول يعرض رأيه .. طرد هذا الرجل من
صفوف الجماعة .. لأنَّه يضمُّ لها شراً ..
يضمُّ شراً ؟ !

لكن ، أي تطفل على سرائر الناس هذا .. ؟

* * *

وأية رقابة على الضمير الذي جاء محمد ليساعده على النهوض . ؟

ويسائل الرسول صلى الله عليه وسلم صاحبه :
— ﴿ هلا شققت عن قلبه ﴾ ؟ !

ويعود الرجل فيتكلم :
يا رسول الله ، إنه يخفى في نفسه غير ما يعلن .
ويجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم .
— ﴿ إن الله لم يأمرني أن أشق صدور الناس لأرى ما فيها ﴾ . !!

عبارة وجيزة ، صيغت في بساطة ويسر ، لكنها تحمل مضموناً يشكل دستوراً هائلاً ، وحافلاً .. يحمي الضمير ، ويضع حريته بمعنى من التحريم والافتیات .. وفي هذه البداية المشجعة ، تتمثل نقطة انطلاق الضمير في شريعة محمد ..
فهذه الرعاية لحرمه ، والتقدير لحريته ، لا يمنحان تدليلاً له ، ولا إفلاتاً لزمامه .. بل ليتعود حمل المسئولية و اختيار المصير ..

﴿ يا فاطمة بنت محمد ﴾ ..
﴿ اعمل ، فإنه لا أغني عنك من الله شيئاً ﴾ ..



﴿ من يعمل سوءاً يُجْزَ به ﴾ ..

■ □ ■

﴿ ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ ..

حين جاء محمد ، وجد الناس الذين بدأ بينهم دعوته ،
يتغثرون في وجود زائف ، ويُمارسون حياة مزورة ..
وما داموا ، لا يعيشون في وجودهم الحقيقي ،
فالضمير الإنساني ، إذن يعاني محنّة ويترنح إعياء ..
ولقد كان ذلك حاله ..

كان مستبعداً لأساطير الأولين ، ومنحتني دائماً في مذلة
وغفلة ، أمّا حجارة مرصوصة ، تسمى الآلهة .. !!
وكان مجرد وجود صوت يقول : لا .. بمثابة إطلاق -
أكيد - لسراح هذا الضمير ، ودعوة له ليمارس وجوده ،
وحريته ..

ولقد جاء الذي سيقول : لا ..

وهو : محمد رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ..
وسيكون التاريخ هناك ، ينتظر سمعها منه ، ليبدأ من
فوره شوطاً طويلاً ، معيناً ، جليلاً ، يطوف خالقه بمعظم
الأرض ، حاملاً دعوة محمد .. معلناً نهاية الوثنية ..
ساحقاً بقدمه ، أو طاويأً بيمنيه ، أصنام العرب ، ونار
الفرس ، وعبادة قيصر ، وهاتفاً بسيادة الإنسان على
الأرض ..

فليس فيها بعد اليوم أذوبة يعبدوها ، أو قوة يسجد
لها .

الذين يعبدون «قيصر» لن يعبدوه بعد اليوم .
 والذين يسجدون للنار ، لن يسجدوا لها بعد اليوم .
 والذين يطوفون حول الأصنام ، لن يطوفوا بعد اليوم .
 وستنقطع جميع الخيوط غير المنظورة ، التي تربط
 هؤلاء ، وأولئك بمعبوداتهم الباطلة ، والهتّهم الزائفة .
 وسيقف الإنسان فوق الأرض سيداً لا عبداً .. تدفعه إلى
 غايته حركة جديدة نابعة منه ، لا من أصنام ، ولا من
 أزلام ، ولا من قيصر ، ولا من كاهن ..
 وشطر السموات العلى .. سينيم وجهه ، حيث إله
 آخر .. إله واحد .. إله حق ..
 لا ينام .. ولا يمرض .. ولا يموت .. ولا يحقد ..
 إله ليس قيمراً .. ولا حبراً ..
 «سئل الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، عنه ذات
 يوم » :
 كيف رأيت ربك .. ؟؟
 فأجاب :

«نور ، أني أراه » !! ..

أجل .. هو نور السموات والأرض . هو قوة عالية ،
 عادلة ، تملأ الكون ، وتنبئ في الكائنات جمياً ، انبثاثاً
 عظيماً مسيطرًا ..

وإننا لنن ked نراه في أنفسنا . في الشمس .. في مياه
 النهر .. في النبات الأخضر .. في اليابس والحمد .. في
 الحركة والسكون .. في السماء .. وفي الأرض ..

يسأل الرسول جاريه : « أين الله » .. ؟
فتجيبه : في السماء ..
فيرضى عن جوابها ، ويقول : إنها مؤمنة ..
ولكنه في موطن آخر يقول :
﴿ إذا كان أحدكم يصلى ، فلا يزق
أمامه ، فإن الله تجاهه ﴾ ..

ويقول مرة ثالثة :
﴿ لو ألقى أحدكم دلوه في بئر ، لوقع
على الله ﴾ ..

حتى ليكاد يتركنا نحسب أن الله هو الحياة .. أو هو
روح الحياة ، فهو أمامك ، وعن يمينك ..
هو في الشمس الطالعة ، وفي الماء الجاري .. وفي
الأفق المشرق ..

﴿ ليس كمثله شيء ، وهو السميع
البصير ﴾ ..

الم يكن محمد بشراه هذه .. بفهمه هذا الله .. يطلق
الضمير الإنساني من قيود يوسف فيها أمام قيسري عبده ..
أو صنم يذل له .. أو نار يسبح بحمدها .. !؟..
الم يخرجه من دائته المغلقة .. ويقذف به إلى الجهات
الأربع .. يحلق في رحلة صاعدة ... ٩٩٩
عندما يأخذنا من أمام الأصنام ، ومن بين أيدي
القياصرة المعبددين ، ويقول لنا :

إذا كنتم تريدون الله ، فانطلقو صوب الحياة ..
﴿أينما تولوا .. فَشَّمْ وجه الله﴾ .. !!



﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا - هو -
رابعهم ولا خمسة إلا - هو - سادسهم ،
ولا أدنى من ذلك ، ولا أكثر ، إلا -
هو - معهم﴾ . !

ماذا نفهم من هذه الآيات ..؟؟
أما أنا ، فأفهم أنها تؤدي دوراً جليلاً ، غاية الجلال في
تحرير الضمير الإنساني من سخرية الألوهية الزائفة التي
كانت تُذلُّه وتُضليله ، وتفسد عليه رؤاه ..

ولننعد إلى الحديث الذي بدأنا به حديثنا هذا ..
رأينا ، كيف أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام ، أنه
لم يجيء ليشق صدور الناس ، ويتجسس على سرائرهم ،
ونواديهم ..

إنه إذن يصون حرية الضمير ، ويعلن حقوقه ..
ويصون حرية التفكير ، لأن التفكير عمل من أعمال
السريرة .. فنحن نفكر في أنفسنا ، ومع أنفسنا ..
ولا يطلع على تفكيرنا أحد ، إلا حين نعبر نحن عنه بأية
وسيلة من وسائل التعبير ..

وحين نحمل ضمائر حرة .. أى حين نحيا في وجود
حقيقي غير زائف ولا مبقر .. فإن تفكيرنا وبالتالي ، يكون
حرأ ..

ويكون سديداً .. ويكون منشئاً وعظيماً .
ماذا يفسد الضمير ، ويفقده حريته وسيادته .. ؟
إنها : الترغيب الباطل ، والترهيب الجائر ..
أى : المساومة ، والخوف ..

نفس المشكلة التي واجهت سيدنا المسيح من قبل وهو
يعالج مأساة الضمير .
ولسوف يُجهَّز عليها سيدنا « محمد » في إبداع ، وفي
إعجاز ..

- (أ) ليس بين الله ، والناس ، وسطاء ..
- (ب) لأنَّه ليس أحد أحق بالوساطة من أحد ..
- (ج) لأنَّه لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على
أسود ، ولا تمايز أبداً بين الناس .
- (د) والامتياز الوحيد ، إنما هو للعمل الأصدق ،
والأصح ، والأنفع .
- (هـ) فإذا كنت صاحب عمل صادق ، صالح . نافع ..
فبَدَ الله فوق يدك ، من غير أن تطلبها ..
- (و) وإذا لم تكون .. فليس ثمة من يمنحك جواز المرور ..
لأنَّ « جوازات المرور » كلها لدى واحد لا يتكرر ،
ولا يحابي . ولا ينقض سنته وقوانينه ..
هو الله ..

وإذن ، فليذهب السمسرة جمِيعاً إلى الجحيم إن
شاءوا ... !!!

لقد انقضَّ سامِرْهم وأفْحَلَت إلى الأبد ، السوق التي

طالما سرقوا فيها القلوب والجيوب ..
إن محمدًا يتكلم .

إنه يذيع نعى السمسارة والوسطاء .. فاسمعوا رَتْينه
العذب ، قوله الصادق .

﴿إِذَا سُئِلَتْ، فَاسْأَلْ اللَّهَ﴾ ..

﴿وَإِذَا اسْتَعْنَتْ، فَاسْتَعْنْ بِاللَّهِ﴾ ..

﴿وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ
يَنْفَعُوكَ .. لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ،
كَتَبَ اللَّهُ لَكَ﴾ ..

﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضْرُوكَ،
لَمْ يَضْرُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَ اللَّهُ
عَلَيْكَ﴾ ..

﴿وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ، مَعَ
الصَّابِر﴾ .. !!

■ □ ■

﴿أَعْمَلُوا﴾ .. ! ..

﴿فَكُلُّ مُيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ﴾ ..

ثم يُركز المسئولية في يد الضمير :

﴿إِنَّ اللَّهَ، لَا يَغِيرُ مَا بِقَوْمٍ، حَتَّى
يَغِيرُوا مَا بِأَنفُسِهِم﴾ .

﴿ من اهتدى ، فإنما يهتدى لنفسه ،
ومن ضلَّ ، فإنما يضلُّ عليها ﴾ ..
﴿ ولا تزِرْ وازِرَةً وزَرَ آخرٍ ﴾ . ?

■ □ ■

﴿ الحق من ربكم ﴾ ..
﴿ فمن شاء فليؤمِن . ومن شاء
فليكُفِر﴾ .. !!

■ □ ■

﴿ وإن تَدْعُ مُثْقَلَةً إِلَى حَمْلِهَا لَا يَحْمِلُ
مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ .. !!
أَى عَظَمَةٌ ، وَأَى صَدَقَةٌ ، وَأَى خَلاصَ مِنْ وَطَأَةِ
الْوَسَاطَةِ ، وَالسُّمْسَرَةِ ؟؟
وَأَى مُواجهَةٌ لِلضَّعِيرِ الْإِنْسَانِيِّ بِمَسْؤُلِيَّاتِهِ ، أَوْضَعُ
مِنْ هَذِهِ الْمُواجهَةِ .. ??
إِنْ أَى إِنْسَانٌ تُثْقِلُهُ أَخْطَاؤُهُ وَذَنْبُهُ .. ثُمَّ يَدْعُو مِنْ
يَسَاعِدُهُ فِي وَضْعِ حَمْلِهِ الَّذِي يُبَهِّظُهُ .. لَنْ يَجِدْ
الْمُجِيبَ .. !

﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ .. !!

أَنْتَ وَحْدَكَ ، عَوْنَ نَفْسِكَ .

فتقدم .

كن خيراً ، إن شئت ، أو شريراً !!
كن صالحاً ، إن أردت .. أو فاسداً
الحمل حملك .. والمسؤولية مسؤوليتك .. والمصير
مصيرك .

وهذا أرقى ما يمكن أن يحرر به الضمير .
 فهو إذ يعطى وثيقة حريته .. يعطى معها وفي نفس
الوقت ، زمام مسؤوليته !!
إن « المسؤولية الشخصية » ، تتسع هنا ، لتشكل وجوداً
جديداً ، يفارس فيه الضمير البشري حريته ممارسة
ناشطة ، ممثلة ، فعالة .
« لا تكسب كل نفس إلا عليها » ..

■ □ ■

« من جاهد ، فإنما يجاهد
لنفسه » ..

■ □ ■

« لا تُسألون عما أجرمنا .. ولا تُسأل
عما تعملون »

■ □ ■

« لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ،
ولا ضراً !!

■ □ ■

وَالآن ، فِمَعْ مُحَمَّد ، مَرَّةً أُخْرَى ، بَلْ مَرَاتٍ ، بَلْ دَوْمًا ..
لَنْ يَبْصِرْهُ فِي جَلَالِهِ . وَهُوَ يَحْرُرُ الْإِنْسَانَ ، وَيَحْرُرُ الْحَيَاةَ .
لَقَدْ رَأَيْنَاهُ وَهُوَ يَجْهَزُ عَلَى الْمُسَاوَةِ ، وَعَلَى الْوَسَاطَةِ
الَّتِي تَجْعَلُ الضَّمِيرَ الْإِنْسَانِي تَابِعًا ، وَسَلْعَةً .
وَالآن نَرَاهُ وَهُوَ يَحْرُرُهُ مِنْ الْخُوفِ .

إِنْ شَرُّ الْوَانِ الْخُوفِ ، هُوَ الْخُوفُ مِنْ أَنفُسِنَا .
إِنْكَ قَدْ تَخَافُ «شَبَّحًا» . وَلَكِنْ خُوفُكَ سَيَنْتَهِي
بِاِكْتِشَافِ حَقِيقَتِهِ .

وَقَدْ تَخَافُ «ظَالِمًا» ، وَلَكِنْ خُوفُكَ سَيَنْتَهِي بِاِنْتِهَاءِ
ظُلْمِهِ .

وَقَدْ تَخَافُ فَقْرًا ، أَوْ مَرْضًا ، أَوْ كَرْبًا وَلَكِنْ خُوفُكَ
سَيَنْتَهِي بِمُجاوِزَةِ الْفَقْرِ إِلَى الْغَنَى ، وَالْمَرْضِ إِلَى الْعَافِيَةِ ،
وَالْكَرْبِ إِلَى الْفَرَجِ .

أَمَا حِينَ تَخَافُ نَفْسِكَ .. فَإِنْكَ تَصَابُ بِشَرٍّ مَا يَمْزُقُ .. ؟
لِمَاذَا .. ؟؟؟

لَأَنْ نَفْسِكَ لَا تَفَارِقُكَ أَبْدًا ، وَلَوْ غَادَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا إِلَى
السَّمَاءِ ، وَإِذْنَ فَسْتَظَلُ مُخَاوِفُكَ مَعَكَ ، تَحِيطُ بِكَ ، وَتُثْمِلُ
لَكَ ، وَتَفْقِدُكَ سَكِينَةَ نَفْسِكَ ، وَتُتَبَّرِّ وَجُودَكَ تَتَبَيَّرًا .. !
وَخُوفُ النَّفْسِ ، يَنْمِيهِ الْفَهْمُ الْمُغْلُوطُ لِطَبِيعَتِهَا ،
وَالْمُبَالَغَةُ فِي تَجْسِيمِ أَخْطَائِهَا ..

عِنْدَئِذٍ يَلْفَحُ الضَّمِيرُ نَوْعَ رَدِيءٍ قَاسٍ مِنَ الشَّعُورِ الْحَادِ
بِالْإِثْمِ ، يَشْطِرُ الذَّاتَ الْوَاحِدَةَ شَطَرَيْنِ ، وَيَقْسِمُهَا إِلَى
مَعْسُكَرَيْنِ .. ؟

ويشعل في الشخص الواحد المنقسم على ذاته « حرباً أهلية » مضنية .. !

وفي هذا ، يتقدم الرسول ليتابع القيام بواجبه تجاه تحرير الضمير .

إنه لا يتغاضى عن الذنوب ، إذا كانت جرائم « طبقة » أو جرائم « سلطة » ..

ونعني بجرائم « الطبقة » ، تلك التي تشكل مقاومةً لمصالح الجماعة ، وحقوقها . وتقدمها ..

ونعني بجرائم « السلطة » ، تلك التي تُشتغل فيها الوظيفة ، أو المركز ، في انتهاك مال ، أو إهدار حق .. أما تلك التي يفرزها الضعف الإنساني ، في نطاق

فردی : فهو بها جدًّا رحيم .. !

وكما قال السيد المسيح من قبل : « من كان بلا خطيئة ، فليرمها بحجر » ..

يقول سيدنا محمد :

« كل بنى آدم خطاء » .

وإنه ليضع أخطاءنا الأخلاقية في مكانها الطبيعي ، بوصفها « إفرازاً » يكاد يكون حتمياً . لوجودنا ، ولطبيعتنا .. فيقول :

« والذى نفسي بيده ، لو لم تذنبوا ،
لذهب الله بكم ، ول جاء بآخرين
يذنبون ، فيستغفرون ، فيغفر لهم » .

إن الرسول ، لا يحرّض بهذا على الخطأ ، والرذيلة ..

وإنما يشير إلى قانون هام من قوانين حياتنا .. ذلکم ،
 هو « قانون التجربة ، والخطأ » .
 إن الذنب هنا يعني : الخطأ ..
 والاستغفار ، يعني : التجربة ..
 لأنه - أعني الاستغفار - يمثل الموقف الذي نحاول فيه
 استرداد أنفسنا ، وقطامها عن الخطأ الذي كانت تُقارفه ..
 وهذه ، تجربة ..
 ذلك أن التجربة ، ليست هي الحادثة التي تحدث لنا ..
 بل هي ، موقفنا من الحادثة نفسها ..
 ويبيّث الرسول في الضمير مزيداً من الطمأنينة ،
 فيضرب هذا المثل :
 ذات يوم ، وهو يسير مع أصحابه ، يبصر على الطريق
 أمّا تضم طفلاً في شغف كبير ، وفي حنان أكيد .. فيقف
 متاماً ، ثم يسأل أصحابه :
 — « أترؤن هذه الأم ، طارحة ولدها
 في النار » . ؟ !

ويجيب أصحابه رضي الله عنهم :
 « أبداً ، يا رسول الله ».
 فيعقب الرسول ، قائلاً :
 « والذى نفس محمد بيده » ..
 « لله أرحم بعده المؤمن ، من هذه
 بولدها » !

ويتلئو محمد آيات ربه في هذا المقام .
 وإذا كان الشعور الحاد بالذنب يعزلنا عن أنفسنا ،
 ويسبب خوفا منها ، ويضعف ثقتنا بها ..
 وإذا كان الرسول ، قد أبعد عنا وطأة هذا الشعور ،
 حين ضاءل من خطورة ذنبنا وأخطأتنا ..
 فإنه أيضا ، في نفس اللحظة .. ولنفس السبب ، قد
 كرّه إلينا الخطايا ، وحدّرنا من ارتكابها ..
 فليس من المعقول أن يعني بتطهير المضيبي ويغفل أمر
 المتابعين .

وإن ، فهو حين يدعونا إلى الفضائل ، وحين ينهاانا
 عن الرذائل ، بل وحين يُلح أحيانا في دعوته هذه ، فإنه
 لا يعني التحكم في الضمير ، إنما يريد أن يبتعد به عن
 دواعي الخوف وأسبابه .
 ويريد له أن يحتفظ دوماً بأمنه وسلامه .
 » فالذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ،
 لهم مغفرة ورزق كريم « .

■ □ ■

» ومن ي عمل سوءاً ، أو يظلم نفسه ،
 ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً
 رحيمًا « ..

بل إنه ليذهب في إفساح آماد الأمل والرحمة مذهبًا بعيداً ،
 بارًا ..

فيدعو صاحبه «أبا هريرة» ذات يوم، ويقول له :
يا أبا هريرة ، اذهب ، وبشر كل من يلقاء بالجنة ..
ويبيه «أبو هريرة» لهذه المهمة الطيبة التي ستنزله
في قلوب الناس مثلاً مباركاً . إذ يبشرهم بأعظم بشري
ينتظرونها ..

ويمضي مهولاً .. يبشر كل من يقابلها بالجنة .
ويلمح .. «عمر بن الخطاب» قادماً ، فيجري نحوه
سعیداً بالجميل الذي سيديه إليه . فيربح به قلبه .
ويلقاء ، ويعانقه ، ويصبح
يا عمر . أبشر بالجنة ..

— الجنة .. ومن آنباك هذا ..
آنباى رسول الله يا عمر .. قال لي . إذهب وبشر كل من
يلقاء بالجنة ..

ويظن عمر أن أبا هريرة قد أصابه شيء .. فيأخذ
بتلابيه في صرامة ، ويقوده أمامه إلى رسول الله ،
ليستجلِّي الخبر ..

وبين يدي الرسول . يتأكد عمر من صدق صاحبه ..
ولكنه يشير على الرسول لا يفعل .. حتى لا يتكل الناس
على عفو الله ، فيتركوا العمل ، ويتقاусوا عن الخير ..

■ □ ■

بعد هذا ، يجيء دور الأفة الثانية من آفات الضمير .
وهي حرمانه حقه في المناقشة ، والمعارضة ، ووضعه
تحت وصاية غبية من التقاليد الballية ، ومن سدنته ،
وخدماتها .

وللرسول مع هذه ، جولة موفقة ..
ومجرد ظهوره ، كرسول ، كان « نعياً » لها ، وقضاءٌ
أكيداً عليها .. فلقد كان عمله ، المناقشة ، والمعارضة ..
وتسرير أولئك الذين يزعمون لأنفسهم لأنفسهم من دون الناس ،
حق التوجيه والوصاية .

إنه يحدث الناس عن ربه

﴿ سيروا في الأرض ، فانظروا كيف
بدأ الخلق ﴾ ..

ويطوف بين آيات الكون وعجائبها ، ثم يقول ..
﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ ..
﴿ إن في ذلك لآيات ، لقوم
يعقلون ﴾ ..

ويسلك مع الناس سلوكاً ، من شأنه أن يُغْرِي الضمير
الإنساني بالمناقشة ، وبالمعارضة .

يقول له « أعرابى » ، يا محمد . اعطنى ، فليس المال
مالك ، ولا مال أبيك ..

ويهرب إليه عمر غاضباً ، يريد أن يطرحه أرضاً
أو يجهز عليه .. فيرده الرسول في ابتسامة عذبة .
ويقول :

﴿ دعه يا عمر ﴾ ..

﴿ إن لصاحب الحق مقالاً ﴾ .. !!

وهو - عليه السلام - يلوم السليبيين الذين لا يواجهون

الخطأ بالتقويم ، وينهي الناس عن أن يكونوا كذلك :
لا يكونن أحدكم إمّعة ..

يقول : « إذا أحسن الناس ،
أحسنت » ..
« وإن أساءوا ، أساءت » ..

« ولكن ، ليوطّن أحدكم نفسه ، إذا
أحسن الناس ، أن يُحسن .. وإذا
أساءوا أن يتجنب إساءتهم » .. !!

وإنه ليقدم على التقاليد التي انتهت دورها ، ثم
لا تزال تتلّكا ، وتتشبث بالبقاء .. وعزلها عن الضمير
الإنساني ليباشر دوره مع الحركة الجديدة للتاريخ .
ويسخر من الذين يقولون كلّما دعوا إلى التقدّم : « إننا
وجدنا آباءنا على أمّة ، وإننا على آثارهم مقتدون » .
ويرثى لمصير الذين لن ينالوا صداقته يوم يقوم الناس
لرب العالمين ، لأنّهم « كانوا يرجعون بعده القهقري » !!
ويقول مباركاً نهج الحياة في التعبير والتطور ، وهاتقاً
بنا ، كي نسارع دوماً إلى نداء التجديد القويم الصالح :
« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل
مائة سنة من يجدد لها دينها » ..

ولقد دمر الوصاية على الضمير الإنساني ، حين أعطاه
خُريته ، وحمله مسؤولياته على النحو الذي رأيناه من

قبل .. كما اعترف بحقه في الخلق ، والابتكار ،
والتصرف ، حين قال للناس : « أنتم أعلم بشئون
دنياكم » .. !

■ □ ■

أما موقفه من ثلاثة الأثافي التي كان الضمير يتربّح
منها ، وهي : العنصرية .. فما أروعه وهو ينقض بناءها
حبراً ، من بعد حجر .. !!

لقد عرف - جيداً - المنزلة التي بُوأه الله إياها ..
ووضعه فيها .. إنه نذير يخرج في قومه ، وبشير .
وقومه - وهذا تأخذ الكلمة « القومية » أصدق مفاهيمها ،
وأحققها بالإكبار والإجلال - ..
 القومه ، هم العالم .. دون أن ينقص ذلك من ولائه لوطنك
وعشيرتك .

أجل ، هو رسول الله إلى العالم ليهديه بالحكمة
والموعظة الحسنة ..
العالم كله .. حاضره ، وغائبه .. قريبه ، وبعيده ..
صالحه ، وزائفه !

« إنى رسول الله إلى الناس كافة ». .
« وما أرسلناك إلا رحمة
للعالمين » . .

وحين يُسأل عن أفضل الأعمال ، يجيب وما أبهره من
جواب . !

﴿أفضل الأعمال ، بذل السلام للعالم﴾ . !

بذل السلام للعالم .. ???

لـكـاـنـهـ بـقـوـلـهـ الـيـوـمـ .ـ وـلـكـاـنـهـ تـخـرـجـ الـآنـ مـنـ بـيـنـ شـفـتـيـهـ
الـوـدـوـدـتـيـنـ غـضـبـةـ ،ـ رـطـبـةـ ،ـ حـانـيـةـ ،ـ دـافـئـةـ ،ـ هـادـيـةـ ،ـ
جـلـيلـةـ ... !!

أـنـىـ يـكـونـ لـلـعـنـصـرـيـةـ -ـ إـذـنـ -ـ فـيـ دـعـوـتـهـ مـكـانـ .. ??
إـنـ العـنـصـرـيـةـ ،ـ اـنـانـيـةـ جـشـعـةـ مـظـلـمـةـ ،ـ وـلـقـدـ عـاـشـ
الـضـمـيرـ الـإـنـسـانـيـ فـىـ حـمـائـهـ حـتـىـ كـادـ يـفـقـدـ ذـاتـهـ ..ـ وـكـلـ
تـحـرـيرـ لـهـ مـنـهـ ،ـ يـمـثـلـ تـحـرـيرـاـ بـاهـرـاـ لـلـإـنـسـانـيـةـ كـلـهاـ ،ـ إـلـىـ
الـأـبـدـ .

منـ أـجـلـ هـذـاـ ،ـ أـمـرـهـ رـبـهـ أـنـ يـقـولـ :ـ
﴿يـاـ أـيـهـاـ النـاسـ ،ـ إـنـاـ خـلـقـنـاـكـمـ مـنـ ذـكـرـ
وـأـنـىـ﴾ ..

﴿وـجـعـلـنـاـكـمـ شـعـوبـاـ وـقـبـائـلـ
لـتـعـارـفـوا﴾ ..

أـيـ لـتـكـونـ غـايـتـكـمـ ،ـ التـعـارـفـ ،ـ وـالتـاخـيـ .. !ـ
وـفـيـ التـطـبـيقـ الـعـمـلـيـ لـهـذـهـ الدـعـوـةـ الـجـلـيلـةـ ،ـ يـمـضـيـ
سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ كـالـضـوءـ .

فـ «ـسـلـمـانـ»ـ الـفـارـسـيـ ..ـ يـأـخـذـ مـكـانـهـ إـلـىـ جـوارـ
«ـأـبـىـ بـكـرـ»ـ وـ «ـعـمـرـ»ـ الـقـرـشـيـيـنـ .. !ـ

و « بلال » الحبشي ، يكون مكانه في السُّلْمِ الاجتماعي ، ذروته وأعلاه .

بينما « أبو جهل » الرزعيم القرشى . يهوى في تقدير الرسالة إلى حضيض ليس له قرار .. !

ذلك أن العمل الصادق من أجل تقدم هذا « العالم » وسلامه .. هو الميزان الذي يحدد أقدار الناس .

وبلال الحبشي .. كان من العاملين الصادقين .. لأن الدعوة التي سار تحت لوائها ، كانت تقدماً بالحياة ، وبالزمن ، وبالناس إلى الأمام ..

كانت تأخذهم من معاطن الركود ، والبلى ، والجهل .

إلى حياة جديدة حافلة بالحركة . وبالتطوع ..

أما أبو جهل : فكان من أقطاب الرجعية ، والوقوف .. لهذا أخذ مكانه في أدنى السلم حتى دفعه الزحام آخرأاً إلى القراب .. !

الليست رائعة . وعظيمة .. وقفه هذا الإنسان الكبير ، في قرية متواضعة هي « المدينة » .. منذ ألف وأربعين عام .. يمزق راية العنصرية .. ويسوق القافلة إلى إخاء رحيب ، ويتحدث عن « بذل السلام للعالم » .. !!

أجل . إنها كذلك .. سيماما حين نرى في زماننا هذا ، ذي المدينة البازخة ، والحضارة الشامخة . ذؤلاً ، وشعوباً تنادي بالعنصرية ، وتقيم لها الصرح .. !

إن حاجتنا لأكيدة ، ومستمرة . لتلاوة الإعلان الذي أذاع به « محمد والمسيح » . حقوق الضمير الإنساني .

وخلصاه به من أصفاده التي كان يعانيها ، ويقاسيها .
ولم يكن ثمة أى اعتبار لدى محمد ، للفوارق التي
 تستطيع إذا أهمل خطامها ، أن تخلق طبقة باغية ،
 أو عنصرية مستعلية ..

لا اللون ، ولا الجنس ، ولا الثروة . بل ولا الدين ..
 لا شيء من هذه جمِيعاً يأذن له الرسول بأن يفرق بين
 الإنسان ، والإنسان .

ومن جهة اللون ، والجنس ، والثروة ، يقول فيما
 يقول ..

﴿ كلَّمْ سُوَايَةَ كَأْسَانَ الْمَشْطِ ﴾ ..

ومن جهة الدين ، يقول عن ربه :
﴿ شَرِعْ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ
 نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ ..
 وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ، وَمُوسَى ،
 وَعِيسَى .. أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا
 فِيهِ ﴾ ..

ويقول :

﴿ الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ . أُمُّهَاتُهُمْ شَتَّى ،
 وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ﴾ ..

وهو ، كرسول للإسلام ، يعامل أهل الكتاب معاملة الأخ
 والنذ .. مالم تحمله ضرورات حرب على سلوك آخر
 طارئ ، لا يلبث أن يزول بزوال تلك الضرورات ..

لم تكن لدعوة « محمد » عليه الصلاة والسلام حدود
إقليمية .. ولم تأخذ أبداً طابع التعصب ،
ولا العنصرية ..

أنظروا ..

حين قدم المدينة ، وجد اليهود يصومون يوم
« عاشوراء » ..

فسألهم : لماذا تصومونه .. ؟؟
فأجابوه : إنه يوم عظيم .. أنجى الله فيه موسى ومن
معه .. فصامه شكراً لله .. ونحن لهذا نصومه .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :
﴿ نحن أحق وأولى بموسى منكم ﴾ ..

وصام « عاشوراء » .. وأمر المسلمين بصيامه .. !!
هذا رسول « إنساني » الرؤى .. « عالمي » النهج .
ومن ثم ، لم يكن للعنصرية في حياته ، ولا في دعوته
مكان .



هكذا حُرِّ « محمد » ، كما حُرِّ « المسيح » الضمير البشري من الأخطبوط الذي كان يحتبسه ، ويتحققه ، والذي أفضنا في الحديث عنه ، وفي الحديث عن الإجراءات التي اتخذها ضده ، الرسولان الكريمان .. !!
ونود أن نذكر بما قلناه من قبل .

أن الضمير الإنساني ، كما نعنيه هنا .. هو « الإنسان في وجوده الحقيقي » . وأول مظاهر هذا الوجود الحق للإنسان ، هو .. الفكر . وكل دفاع عن حرية الضمير ، وحقوقه .. هو دفاع عن حرية الفكر ، وحقوقه .

ومن شاء .. فليعد تلاوة النصوص التي سلفت كلها ، فسيبصُر أنها مباشرة في حماية الفكر ، مثلما هي مُباشرة في حماية الضمير .

إن « التفكير » عملية ذهنية .. تراولها جمِيعاً بأسلوب تلقائي حتمي .. لا نتكلفه ، ولستنا على دفعه بقادرين . كل فرد يفكر في شئونه ، ومشاكله ، وشواغله ، ورؤى نفسه .

وكل فرد يعبر عن ذات نفسه بالطريقة التي يستطيعها . ويتعزل تفكيرنا .. وينافق تعبيتنا ، حين تصيبنا بعض الضغوط الكابحة .

هذه الضغوط التي ترتكب بتقْحُّمها جَمِيعَ الفكر جريمة .. « إرهاب الضمير » .

وإرهاب الضمير ، أشدُّ قساوة ، وأكبر إفكاً ، وأيأساً
مسيراً من إرهاب الجسد .

ذلك أن « إرهاب الجسد » قد يكتبُ التصرُّفات والسلوك
والقول ..

ولكن الفكر يبقى بعد هذا يعمل ، ويجمع الوقود ثم
يزجيء ليوم الفصل .

وليس على ظهر الأرض قوة ، تستطيع أن تمنعك عن
التفكير فيما تشاء ..

ذلك أن التفكير عملية مخبوعة ، غير منظورة ، وغير
مسومة .

إنك - في صمت - تفكر فيما تشاء .. ولا يعلم أحد عن
موضوع تفكيرك وحاطرات نفسك شيئاً ، إلا حين تفتح
شفتيك ، وتحرك لسانك ..

ومهما تكون الظروف التي تمسك لسانك عن كلام تريد أن
تقوله .. أو تمسك سلوكك عن عمل تريده أن تمارسه ، ففى
يوم ما ، ستتوفر لك لا محالة ، ظروف أخرى تمكّنك من
القول ومن العمل في حرية واختيار .

لكن إرهاب الضمير شيء مختلف جداً .. فهو يسلط على
« بؤرة » الحياة فيفسد لها إفساداً لا يكاد يصلحها بعد ذلك
شيئاً .

أو هو ، يلوى زمام الضمير عن السبيل الصحيحة ، إلى
طرائق ، كلها حفائر وعثرات .. !!

* * *

إنك - مثلاً - حين تؤمن بحق البشر في سلام دائم ، ويمارس ضميرك دوماً تفكيراً دائياً في هذا الحق .. ثم تقوم ظروف قاهرة ، أو قوة راهبة ، تحول بينك ، وبين الإعلان عن صوت ضميرك ، وإذا عما تفكر فيه .. فإن ذلك لا يضر .. إلا ربما تتوارى تلك الظروف ، فتجد فرصتك في التعبير عن ضميرك ، وعقلك ، وفكرتك التي انضجتها المثابرة ، والأناة ، والصبر المفروض .. !!

لكن حين تكون الظروف من نوع آخر فتنفذ بالإرهاب السادر ، أو بالخداع الماكرا إلى ضميرك نفسه .. إلى عقلك ، وتفكيرك ، فتفسده حتى ترى السلام خرافه .. والحروب ضرورة .. فتلك هي الكارثة التي لا تقاد تؤذن بعلاج .. !!

لماذا .. ??

لأن الضربة هنا ، وجهت إلى « بؤرة » الحياة نفسها .. إلى « مركز التنفس » ذاته .. إلى الجهاز العظيم الذي يصنع لنا في الحياة كل جليل من الأمور ، وكل عظيم من الأعمال ..

ذلكم هو العقل .. والضمير .

ومثل آخر ..

قد تكون إنساناً متديناً ، وتعتقد - خطأ - أن تعليم البنات حرام .. عندئذ ، ستكون مستعداً حسب درجة تدينك إلى ارتكاب أية جريمة ، تمنع هذا الذي تظنه منكراً ، وهو تعليم الفتاة ..

وساعتنى ، لن تسمى جريمتك هذه ، جريمة ، ولكن
ستدعوها جهاداً .. وبطولة .. وإذا انتهت بموتك ، فسترى
الموت ، تضحية ، واستشهاداً !!!

وقد تكون من الذكاء والمقدرة ، بحيث تستطيع أن
تجمع حولك «قطيعاً» هائلاً من المؤمنين بك ، وبقولك ..
وقد تستطيع أن تقود هذا القطيع إلى فتنة أو ثورة ،
تكافحون بها «تعليم البنات» - مثلاً - ..!
وسيكون السبب الكامن وراء هذا كله «انحراف
الضمير» .. !!

ومن أين يجيء هذا الانحراف . «

● يجيء من إرهاب الضمير ..

● ومن تضليله ، وحبس المعرفة عنه .

ويتم إرهاب الضمير عن طريق التخويف الديني ..
والتخويف السياسي .. والتخويف الاجتماعي ..
وإن ضحايا الحروب الدينية .. والثورات السياسية
والاجتماعية .. لتشير إلى إرهاب الضمير ، كنقطة بدء لكل
ما أصاب ، وما يصيب البشرية من غباء .

ولو أن الناس يُتركون ، ليفكروا في حرية ، وليبلغوا
حقوقهم في حرية ، لتتوفر كثير من الدم المراق ..
ومن أجل هذا ..

ومن أجل أن يحيا الناس في وجود حقيقي صادق
طيب .. هتف محمد وهتف المسيح بالكثير من حقوق
الفكر ، والضمير .

ولقد حدتكم في بعض مؤلفاتي السابقة . عز المدح
البعيد . والرشيد الذي ذهب إليه محمد ، في احترامه
حقوق العقل . حتى فتح ذراعيه لحرية الشك ذاتها
وذلك ، حين ذهب إليه بعض أصحابه . يُشكّون إليه
أنفسهم ، ويبثونه مخاوفهم القاتلة من شكوك في الله .
تساؤرُهم ..

فإذا هو يُجibهم متھلاً .
﴿ هل وجدتموه ..؟؟ - يعني
الشك - ﴾ .

فيقولون في أسى . نعم ..
فيجibهم في بشر .
﴿ الحمد لله .. هذا تحضر
الإيمان .. !! !!

من كان يعرف مثلاً . لاحترام الضمير الإنساني . أروع
من هذا المثال ، فليدللنا عليه ..
هذا رسول .. صاحب دعوة .. وصاحب دين ..
لباب دينه ، الإيمان باهه ..
ثم يعتبر الشك سبيلاً للبيتين ، ووسيلة للإيمان . بدلاً
من أن يعتبره جريمة ووزراً .
إنه لأمر فريد ، وعجب .. !!



والآن .. يجيء دور سؤال هام ، علينا أن نعرضه ..
وعلينا أن نواجهه في شجاعة . وفي بصيرة ..
وهذا هو السؤال .

الم يكن . السلوك الذي حدده المسيح ومحمد للناس ،
وطلبا إليهم ألا يتجاوزوه - وصاية على الضمير
الم يكن التخويف الشديد الذي بثأه خلال وعيدهما
للعصاة .. إرهاباً للضمير

سؤال يجيء في أوانه ، وفي مكانه ، بعد حديثنا
المسهب عن رعاية الرسولين لحقوق الضمير الإنساني ،
وحمايتها لمصيره .

وأجيب : لا .. لم يكن من ذلك شيء .. إذا أحسنا فهم
محمد وفهم المسيح ..

لقد ظهر المسيح في قوم ، كانوا يخضعون - كارهين -
لوطاة « روما » وكبرياتها .. ويخضعون - مخدوعين -
ل تعاليم الكهنة وخرافاتهم ..

ناس ، كان الضمير فيهم ملفوفاً داخل قطعة من العلم
الروماني .. المرشوش بالماء المقدس . أو الذي كان
الكهنة يسمونه مقدساً ..

وكانت السلطة الزمنية ، والسلطة الدينية
« متفاهمتين » تماماً على موقفهما من الضمير « متفقتين »
على ضرورة اضطهاده ، والتنكيل به .
السلطة الزمنية ، تضطهد بوسائلها المعروفة ..
السجن .. والصلب والتعذيب .. !!

والسلطة الدينية ، ترهبه بوسائلها المعروفة كذلك .
الطرد من الهيكل .. الحرمان من البركة .. الوعيد
بالنار .. !!

فماذا فعل المسيح تجاه هاتين السلطتين الضالتين ؟
أما الأولى فقد أراد أن يعزل سلطانها عن الضمير
بطريقة ذكية ، فقال حكمته الماثورة :
﴿ما لقيصر ، لقيصر .. وما لله ،
لله﴾ ..

وأتجه صوب السلطة الدينية ، التي كانت في معظم
تصرفاتها « دثاراً » يغطي جرائم روما وسلاماً يفتّك به
حكامها .. فقال لرؤساء الكهنة :
﴿يا أولاد الأفاعى .. يا مُراءون ..
أنتم كذابون ، ومهرجون .. تتحدثون
بالصالحات وأنتم فجرة﴾ .. !!

وغمد إلى أساطيرهم ، فتحداها وسخر منها ..
واستقبل الضمير الإنساني ، القابع في آفئدة ناس ،
يرتجفون من الخوف ، فقال لهؤلاء : لا تخافوا .. إن أباكم
السماوي قادر على حمايتك .. وهو فيما يتعلق بحقوقه ،
غفور رحيم ..

وبمثل هذا .. قام محمد ..
قال ، للأشراف الذين كانوا يستضعفون الناس ،
وَيَسْتَرْقُونَهُمْ :

﴿ ليس لابن البيضاء ، على ابن
السوداء فضل .. فارفعوا العبيد إلى
جواركم ﴾ ..

فلما وضعوا أصابعهم في آذانهم ، قاد العبيد بنفسه ،
ليأخذوا مكانهم المشروع ، بجوار السادة ..
ولما رفع السادة سيفهم .. صاح بالعبيد ، أن
يحرجو السادة الغاضبين إلى السفح البعيد ..
ويأخذوا مكانهم الذي هم به جديرون .. !
واتجه صوب « الأسر الديني » المتمثل في الأصنام .
فاللقاها على الأرض أنقاضاً وتراباً ، وقال ، وهو ينكت
مصيرها :

﴿ جاء الحق ، وزَهَقَ الباطل .. إن
الباطل كان زُهْقاً ﴾ .. !!

ولم يكن ذلك من المسيح ومن محمد ، إلا لحساب
الضمير ، ولحساب التقدم الإنساني أيضاً ..
وقد يصعب على بعض الناس ، تصور هذا اليوم ،
لأنهم بعيدون - جداً - عن الزمان ، وعن المكان ، وعن
الظروف التي تمت خلالها ، تلك الخطوات الجليلة ،
الجريئة ، الفاتحة ..

وهذا نسال :

أكان يصح ، والرسولان الكريمان ، يهدمان تعاليم

جامدة ، ألا يقيما مكانها نهجاً للحياة جديداً ..؟؟
بَدَاهَةً ، لا .. ولابد إذن من منهاج .. ولقد دعا كل منها
إلى منهاجه ..

وهذا منهاج ، ثابت وباق فيما يتعلق بقيم الحياة
المثلى .. من خير ، وحق ، وجمال ، وتضحية ، ومعرفة ..
ولكنه مرن ، ومحرك ، وقابل للتطوير ، فيما يتعلق
بسلوك الجماعة ، واحتياجاتها ..
والآن ، فسؤال سؤالاً آخر :

ماذا كانت طبيعة دعوتهما ..؟؟
أكانت وصاية على الضمير ..؟؟
أكانت ، وهى تدعى الناس إلى فضائل معينة تريد أن
« تحدّد إقامة الضمير » ..؟

أكانت ، وهى تُخوّف الناس من عاقبة الخروج عن
الصف ، تريد أن ترعب الضمير ..؟
إن تخويفاً أكيداً ، قد حدث ..

ونستطيع أن نلتقي به في تلك الآيات الغضاب التي
يضمها الإنجيل ، ويضمها القرآن ..

● لكن التخويف الذي لا يتحول إلى إرهاب ، قد يكون
نافعاً .. سيما في تلك الأزمان البعيدة .. ذلك أن الطبيعة
الإنسانية ، كما تنفعل بالرجاء ، تنفعل بالخوف ..
ونحن حتى اليوم ، تعتمد قوانينا ، ويعتمد عرفنا
الاجتماعي ، على الزواجر ، كوسيلة من وسائل التربية

والتنويم : وكما قلنا : التخويف في حد ذاته ، وبقدر
حصيف ليس ضاراً ..

فلا بد من مخافة المرض .. حتى تُعني بالصحة ..
ولابد من مخافة الفوضى .. حتى نحترم النظام ..
ولابد من مخافة الحرب .. لكي نتشبث بالسلام ..
إلى الآن - على الأقل - يلعب الخوف الطبيعي هذا
الدور في تقدمنا ..

ولكن حين نسرف في استعمال الخوف فيصير إرهاباً ..
أو نسيء استعماله ، فلا نقدم معه الأمل والرجاء ، فإن
الوضع آنئذ يختلف كثيراً .

ويتحول الخوف إلى جريمة ووبال .

والتخويف الذي تَوَحَّ بـه المسيح ، وأخوه محمد ،
لم يكن مسيئاً ، لأنـه لم يكن وحده .. بل كان وـسط ذـخر
عظيم من الرجاء ، والأمل ، والكشف الصادق عن رحمة الله
الواسعة ، وفضله السابع ..

كما أنه لم يكن إرهاباً ..

فالـمـسـيـحـ لمـ يـحملـ سـيفـهـ ليـدخلـ عـقـائـدـهـ
فيـ قـلـوبـ النـاسـ عنـوةـ ..

ومـحـمـدـ لمـ يـحملـ سـيفـهـ ليـدخلـ عـقـائـدـهـ
فيـ قـلـوبـ النـاسـ عنـوةـ ..

إنـماـ حـمـلـهـ ، ليـداـفـعـ عنـ نـفـسـهـ وـعـنـ دـيـنـهـ
ضـدـ الـمـعـتـدـينـ ..

وليس أدلّ على هذا ، من أنه حين ظفر وانتصر ،
لم يُكره واحداً من الناس على الدخول في دينه ..
ولقد رفع - عالياً - هذا المبدأ الجليل الذي أوحاه الله
إليه ..

﴿ لا إكراه في الدين .. قد تبين الرشد
من الغي ﴾ ..

● وإذا انتفى وجود الإرهاب .. انتفى وجود
الوصاية ، والحجر على الضمير ..
لقد كان لكل من الرسولين ، عقيدته ومنهاجه .. بثَّ
الرسولان دعوتهما في حرارة وقوٰة ، ورسماً للمؤمنين بهما
مسلكاً وطريقاً .

ولكن ذلك كله ، لا يعني الحجر على الضمير الإنساني ،
ولا ينبغي أن يعني ذلك في وعيينا .
فكل إنسان حر ، في أن يقبل عليهما ، أو يعرض
عنهم .. وهما لا يسلكان الناس في الأغلال ، ثم يسوقانهم
إلى الإيمان ، والإذعان ..
كما أنهما لا يحرمان المؤمنين بهما من حق التفكير
والمحاولة ..

هذا هو المسيح يقول :

﴿ ابحثوا عن الحق ﴾ ..

والقرآن يقول :

﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَانظُرُوا كِيفَ
بَدَأَ الْخَلْقُ﴾ ..

والرسول يقول :

﴿تَفَكَّرْ سَاعَةً، خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ﴾ .

ولقد طالعنا من قبل موقفه الجليل إزاء الذين غلبهم
الشك في الله ، أو كاد .. فما عَنَفُوهُمْ ، ولا فتح لهم أبواب
الجحيم ، بل قال لهم ، وعلى شفتيه بسمة الرضا واليقين
﴿هَذَا صَرِيحُ الإِيمَان﴾ .. !!



■ الفصل الخامس ■

مَعَ

من أَجْلِ الْحَيَاةِ

« أنا خبز الحياة » .

كان المسيح يُهدي إلى الحياة من خير
ما في نفسه . حين قال هذه الكلمات ..
وإنها لتحمل من الطرافة . بقدر
ما تحمل من الحكمة الغنية الحافلة ..
وإنها لتشير تساولاً . وعجبأ ..!
فماذا كان يعني المسيح بالخبز ..?
أكان يعني المذاق المادي لطيبات
الحياة وهو الذي قال : « لا تطلبوا أنتم
ما تأكلون . وما تشربون » ..!!

ولماذا اختار هذا التركيب بالذات « خبر الحياة » . .
لماذا ، وهو العابد الأواب ، لم يقل أنا خبر الإيمان ..
أو : أنا خبر التقوى .. أو خبر الآخرة ..؟؟
لماذا أتر « الحياة » . وقال « أنا خبر الحياة » . .؟؟
الا إن الجواب ليسير .

فالحياة . هي « الموضوع » الذى جاء المسيح ليجلوه
للناس ، ويشرجه . ويلقى فيه درسه البلive ..
هى « الأم » التى جاء المسيح . كما جاء محمد . وكما
جاء إخوة لهم من المرسلين . لينادوا إليها ابنتهما
الشاردين عنها .. وليحيوا فى أنفس الناس .. شعائر البر
بها . والولاء لها ..

وإذا كانت الحياة لا يظفر بها . ولا يحيها ، إلا أولئك
الذين يكون لهم وجود حقيقى ، فقد جعل الرسولان
العظيمان نصب آعينهما ، اكتشاف هذا الوجود الحقيقى
للإنسان ..

ووجودنا الحقيقى ، يبدأ من أين ..؟؟
يبدأ من حيث توجد وتمارس العلاقات الصحيحة مع
كل ما حولنا .. ولقد كان اكتشاف هذه العلاقات ، أكثر
ما عاش له ، وعمل فى سبيله . محمد ، والمسيح ..
لقد كشفا للإنسان أزكي علاقاته ، باهه .. وبنفسه ..
وبالعائلة البشرية كلها .. وبالكون وأسراره الحافلات ..
● أما علاقتنا باهه ، فقد ارتفعا بها فوق كل رغبة ،
ورهبة . وجعلها حباً خالصاً .

قال سيدنا المسيح :

« الله محبة » ..

وقال سيدنا محمد :

« أفضل الأعمال ، الحب في الله » ..

● وأما علاقتنا بأنفسنا ، فقد ركزها في العمل الدائب
على حبّها ، وتعليلتها .

قال المسيح :

« ماذا ينفع الإنسان ، لو ربح العالم
كله ، وخسر نفسه » ..

وقال القرآن المنزل على محمد :

« قد أفلح من زَكَاهَا ، وقد خاب من
دَسَاهَا » ..

● وأما علاقاتنا بالآخرين ، فالتسامح المطلق ،
والتعاضد الوثيق .

قال المسيح :

« أحسِنوا إلى مبغضيكم ، وصلُوا لأجل
الذين يسيئون إليكم ويطردونكم » ..

وقال محمد :

« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ..

● وأما علاقتنا بالكون ، وبأسرار الطبيعة ، فهي التطلع
الشغوف . والبحث وراء المجهول .
قال المسيح :

«اقرعوا ، يُفتح لكم» .

وقال القرآن الكريم :

﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَانظُرُوا كَيْفَ
بَدَأَ الْخَلْقُ﴾

عندما تتوافر لنا هذه العلاقات الرشيدة ، تتولد من
تفاعلها «حركة» ، دائبة ، بانية ، غايتها استثمار وجودنا .
 واستثمار الوجود بما يقتضيه من حركة ، وبما ينشئه
من تَبَعَّة ، وبما يُعطى من نتِيجة : هو الحياة ..
لقد أحبَّ المسيح الحياة ، بقلب حميم ، وعشقاها بروح
ودود .

كان - كما وصف نفسه - خير الحياة .. لأنَّه غذَاها
بتعاليمه ، وسقى مُثُلَّها العليا ، وَقيَّمَها الباقيَة من رُوحه .
ومن أراد أن يبصر حُبَّ المسيح للحياة ، فليبصِّره في
الإِنْسَان ..

فقد كان الإنسان خير موضوعات الحياة عنده ..
وأحبَّ وأقرب أشكال الإنسان إلى قلبه .. الطفل ..
إن «الإِنْسَان الطَّفَل» حبيب روحه ، وصفى نفسه ..

لأنه خير مثال للحياة الطالعة .. الصاعدة .. البريئة ..
الصادقة .. !!

إنه يحب الحياة ، غضة . مُترعرعة ، ناضرة ، لا تأثير
فيها ، ولا مُخالفة .

ومن ثم مجد انعكاسها هذا على خير موضوعاتها -
الإنسان الطفل - الذي يمثل الحياة الكاملة حقاً .. حين
يُحاول .. وحين يتغثر .. وحين يشب وينمو .. !
لنقرأ في الإنجيل هذا النبأ :

« .. في تلك الساعة ، تقدم التلاميذ
إلى يسوع قائلين فمن هو أعظم في
ملائكة السموات .. ؟

« فدعا يسوع إليه ولداً وأقامه في
وسطهم ، وقال : الحق أقول لكم ، إن
لم ترجعوا وتصيروا مثل هؤلاء الأولاد
فلن تدخلوا ملائكة السموات ..

« فمن وضع نفسه مثل هذا الولد ،
 فهو الأعظم في ملائكة السموات ..

« ومن قيل ولداً واحداً مثل هذا ،
فقد قيلني ، ومن أعنث أحد هؤلاء
الصغار المؤمنين بي ، فخير له أن يعلق

فِي عَنْقِهِ حَجَرٌ الرَّحْمَى ، وَيَغْرُقُ فِي لَعْنَةِ

الْبَحْرِ » .. !!

إِنْ هَذَا الْحَدَبُ الْعَظِيمُ عَلَى الْطَّفُولَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، يَمْثُلُ
حَدَبًا أَعْظَمُ عَلَى كُلِّ مَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ خَيْرٍ ، وَجَمَالٍ ،
وَصَدْقَةٍ ، وَسَلَامٍ ، وَصَعْدَوْدٍ ..

وَكُلُّ مَنْ يُغْتَرِرُ وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ القيَمِ التَّى تَزَينُ الْحَيَاةَ
وَتَنْمِيَهَا ، فَقَدْ أَعْثَرَ طَفَلًا مِنْ أَطْفَالِ اللَّهِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ ،
وَيُحِرِّسُهُمْ ، وَيُرْعَاهُمْ ..

وَلَأَنَّ الْحَيَاةَ عِنْدَهُ ، تَعْنِى الْازْدَهَارُ وَالْاسْتِمرَارُ ، كَانَ
كَثِيرًا مَا يُشَبِّهُهَا بِالْحَقْلِ ، وَيُشَبِّهُ نَفْسَهُ بِالْزَّارِعِ الْمُثَابِرِ ..
وَالْحَيَاةُ لَدِى الْمُسِيحِ ، هِى الْحَيَاةُ .. خَيْرُهَا ،
وَشَرُّهَا .. حَلْوَهَا وَمَرْهَا .. خَطَأَهَا ، وَتَجْربَتَهَا ..
وَهُوَ يُحِبُّهَا جَمِيعًا .. وَيُحِنِّوْهَا جَمِيعًا .. حَتَّى فِي
شَقَائِصِهَا ، وَفِي أَخْطَائِهَا ..

ضَرَبَ لِنَفْسِهِ ذَاتَ يَوْمٍ مَّثَلًا :

« إِنْسَانًا زَرَعَ زَرْعًا فِي حَقْلِهِ ..

وَفِيمَا النَّاسُ نِيَامٌ ، جَاءَهُ عَدُوُّهُ وَزَرَعَ -

- زَوَانًا - فِي وَسْطِ الْحَنْطَةِ ، وَمَضَى ..

« فَلَمَّا طَلَعَ النَّبَاتُ وَأَلْقَى ثَمَارَهُ ،

ظَهَرَ الزَّوَانُ بِجَانِبِ الْحَنْطَةِ ، فَجَاءَهُ

خَدْمَهُ ، وَقَالَوا لِهِ : يَا سَيِّدُ ، أَلِيسْ زَرْعًا

جيداً زرعت في حقلك ، فمن أين له
هذا الزوان . . ؟؟

« قال لهم : إنسان عدو ، فعل
هذا . .

« قالوا له : أذهب ، فنجمعه ؟
« قال لهم : لا ، لئلا تقلعوا الحنطة
مع - الزوان - وأنتم
تجمعونه » !!! . . .

انظروا حنانه على الحياة ، واحيائها ..
طالعوا بئه بفضائلها ، وبأخطائها ..
إن الزرع الجيد ، هم الناس الطيبون ، والزرع
الرديء ، هم الناس الخطاطعون ..
وإنه ليرفض أن يقتلع الزرع الرديء رفقاً بالطيب ،
حتى لا يجتث معه ، ويذهب بذداً ..
ولكن ؟ أكان يعني إسلام مصير الطيب للخبيث ..؟؟ ..
كلا ، فالمسيح لا يدع الرحمة تبطل العدل ، ولا يتأنى
لبره العظيم أن يعتاق سُنَّ الكون ، ونظام الحياة ..
ومن أجل هذا ، آتَى المثل الذي ضربه ، فقال :
« . . دعوهما يَنْمُوا . . كلاهما معاً إلى
الحساب . .

« وفي وقت الحصاد ، أقول
للحاصدين :
أجمعوا أولا - الزوان - واحزموه
حزما ليحرق .. وأما الحنطة فاجمعوها
إلى مخزنى » . . . !

ترى ، لو أمكن تحويل هذا - الزوان - إلى زرع طيب .
وحنطة جيدة . أيكون مصيره الحرق أيضا ..؟
بالبداهة ، لا .. وهذا يُتم حرص المسيح على الإنسان
وعلى الحياة دورته ، فيبذل جهده ليحول - الزوان - إلى
زرع نضير . وقمح وغير
يُحول الشر إلى خير .. والإنسان الضال إلى إنسان
أمين مستقيم .

« أنا ما جئت لأدعُو أبراراً للتوبة ،
بل خطائين » . .



« ما جئت لأهلك أنفس الناس ، بل
لأخلص » .



. ولقد أحب « محمد » الحياة حباً عزيزاً نقياً ، وكان لها
صديقاً ، أى صديق .. !!

أحبها في كل مظاهرها . وتبغضها .
فإذا هطل المطر ، سارع إليه كاشفاً عن صدره ، ليتلقي
رذاذه الندى الرطيب وليس بينهما حجاب ..
وإذا بزغ الهلال ، استقبله في إختبات وحفاوة . وناجاه
قاتلًا :

«ربى وربك الله» ..

ويسيير بين الحقول - وما كان آندرها في بلده - فإذا
وقعت عيناه على برامع تفتح . دنا منها ، ومنسها بيد
حانية . ثم انحنى عليها . ولثمتها بغم شكور . وغمراها
بفيض من مودته وصداقته . تم همس إليها قاتلا .

«عام خير وبركة ، إن شاء
الله» .. !!

وإذا حللت الشمس استقبلها داعياً مبتهاً وحين
تغرب ، فلها منه تحية الوداع ..
ولكانما سارع الله إلى هواه ، وشاء أن يذكر صداقته
الحميمية للكون . والحياة ، فاقسم في قرآنه الكريم
بـ «الليل» .. إذا يغشى .. والنهار ، إذا تجلى .. « واقسم
بـ «الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها . والنهار إذا
جلأها » ..

لقد احترم الرسول صلى الله عليه وسلم الحياة في كل
حي .. في الإنسان .. والحيوان .. والطير .
في الأبيض .. والأسود .. والأصفر ..

فِي عَظَمَتِهَا . وَفِي بُؤْسِهَا .
مَرَتْ بِهِ ذَاتُ يَوْمٍ جَنَازَةً ، فَوَقَفَ لَهَا فِي خَشْوَعٍ .. حَتَّى
إِذَا جَاوزَتْهُ قَالَ لِهِ أَصْحَابَهُ : يَارَسُولُ اللَّهِ ، إِنَّهَا جَنَازَةٌ
يَهُودِي .. فَأَجَابُوهُمْ

« سَبْحَانَ اللَّهِ .. !! أَلِيْسَتْ
نَفْسًا » .. !؟؟!!

وَلَمْ يُطِقْ أَنْ يَرَى الْحَيَاةَ تَتَعَذَّبَ فِي « هِرَّةً » . فَقَالَ
مَحْذِرًا :

« دَخَلَتْ اُمْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ
جَبَسْتَهَا ، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا ، وَلَا هِيَ
تَرْكَتْهَا » ..

بَلْ أَرَادَ أَنْ يَمَلأَ الْأَفْئَدَةَ بِتَقْدِيسِ الْحَيَاةِ ، حَتَّى لَا يَبْقَى
فِيهَا مَكَانٌ - أَى مَكَانٌ - لَا مَتَهَانَهَا .. وَسَاقَ هَذِهِ الْقَصْةَ
الْقَصِيرَةَ . وَالْمُثِيرَةَ :

« بَيْنَمَا يَغْنِي تَسِيرُ ذَاتِ يَوْمٍ ، إِذْ رَأَتْ
كَلْبًا يَلْهُثُ مِنَ الْعُطْشِ ، فَخَلَعَتْ مُوْقَهَا
أَى نَعْلَهَا - وَأَدْلَتْهُ بِحَبْلٍ فِي بَئْرٍ ، وَمَلَأْتَهُ
مَاءً ، وَسَقَتِ الْكَلْبُ : فَشَكَرَ اللَّهُ لَهَا ،
وَأَدْخَلَهَا الْجَنَّةَ » .. !!

وَحْبَهُ لِلْحَيَاةِ . جَعَلَهُ يَرْفَضُ أَنْ يَحْيَا هَا مُتَرْفًا . لَآنَ

الطرف يذهب ببهجة معاناتها ..

« نحنُ قومٌ لا نأكلُ حتى نجوعُ ، وإذا
أكلنا ، لا نشبعُ » ..

ورفض أن يحياها متجبراً ، لأنَّ التجبرُ افتياطٌ على
قداستها ..

« إنما أنا بشرٌ مثلُكمْ » ..

ورفض أن يعزله الجهل عن حقائقها ..

﴿ ربِّ زدني علماً ﴾ ..

■ □ ■

« اطلبوا العلم ولو في الصين ». .

ولم يحدثُ قط أن تحدث القرآن عن الحياة حديثاً
استخفافاً وتحذير إلا وهي مقرونة بكلمة « دنيا ». .

﴿ الحياة الدنيا ، لعبٌ ولهوٌ ﴾ ..

﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع
الغرور ﴾ ..

﴿ وأترفناهم في الحياة الدنيا ﴾ ..

وقال عن الذين يعيشون كالأنعام ، لا دور لهم في
الحياة :

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا، نَمُوتُ
وَنَحْيَا﴾ ..

فالحياة المقرونة بهذا الوصف ..

الحياة «الدنيا» ..

الحياة الصغيرة الضئيلة، التي لاتتحقق لها،
ولا تبرير فيها، هي التي يذكرها القرآن دوماً في مجال
الاستخفاف ..

أما الحياة العظيمة ..

الحياة الصالحة، فاليسوع خبزها .. ومحمد
صديقها ...



قلت : إن علاقاتنا السديدة بآله .. وبأنفسنا ..
وبالعالم .. وبالكون جميعه .. تمكنا من استثمار
وجودنا ..

وقلت : إن استثمار الوجود يعني أننا نمارس الحياة ..

وأقول : إننا على أبواب هذه الممارسة نلتقي بعلاقات
آخرى تربطنا بالحياة ، وتشدنا إليها ..

وكلما كانت هذه العلاقات صافية ، صادقة ، جادة ..

كانت الحياة بالنسبة لنا فرصة عظيمة مباركة ..

أما إذا أغتوّر هذه العلاقات الزيف ، والانحراف ،

والكذب ، فإن الحياة - حياتنا - تفقد جمالها ، وقيمتها ..

وقد نستطيع أن نتصور هذه العلاقات في :

● الحب ..

● الصدق ..

● العمل ..

كل أشياء الحياة ، بينها مودة وإلاف .. حتى الخير والشر اللذان ييدوان لنا نقىضين لا يتفقان ، وضدين لا يجتمعان .. يسرى بينهما « شِرْيَان » خفى من التجاذب والتعاون .. وكثيراً ما تعمى السُّبُل على الخير ، فيتقدم الشر ويفتح أمامه الطريق .. ! والأرض . وما حولها من كواكب ، تألف الشمس ، وتجدها ، وتنجذب نحوها .. ونحن ننجذب إلى الأرض في حنان ، واضطرار ..

وهكذا ، فالحب الذي نسميه « جاذبية » ليس مجرد فضيلة ، ولا مجرد عاطفة .. إنما هو « قانون » يحفظ لأصحابه الوجود ، والبقاء ..

وسكان هذا الكوكب - نحن البشر - في حاجة أكيدة ، لـ إدراك هذه الحقيقة إدراكاً سديداً .. وبالأمس .. الأمس البعيد ، الذي أرسل فيه

محمد ، والمسيح ، كنا في أشد حاجة لهذا
الإدراك ..

فغرائزنا التي خرجنا بها من الغابة .. ونظمنا
الملاي بالتناقضات .. كثيراً ما تجعل منا خصوصاً
وأعداء ، والحب متصر حتماً آخر الأمر ، لأنه كما
أسلفنا ، ليس عاطفة ، بل « قانوناً » .. بيده أن ذلك
لا يعني السكوت عن دعوة الناس إلى ممارسة هذا
القانون ، وإحياء شعائره ، والتزام جادّته ..
ولقد جاء الرسولان الكريمان ليناديوا الخلية
إليه .. إلى الحب ، والإخاء ..

وأروع ما في دعوتها للحب من شواهد ، هو
إسقاطهما ذنوب المتهاجرين في الله ، وجعلهما
« الحب » رحمة واسعة ، تذوب في دفتها ، الخطايا
والآثام .

فاليس المسيح وهو يفسر سبب المغفرة الشاملة التي يَشَرِّ
بها الخاطئة ، يقول :

« لقد أحببت كثيراً ، فغُفر لها
كثيراً » .. !!

.... ومحمد

يُساق إليه ذات يوم رجل من المسلمين ، كان قد اعتاد احتساء الخمر .

ولم يكدر أصحاب الرسول الجالسون معه يبصرون الرجل قادماً . يُمسك ببعض الصحابة بتلابيبه . حتى قالوا في ازدراه وضجر : « لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به شارباً » !!!

ولكن الرسول لا يستريح لما يسمع منهم . فيقول لهم في اهتمام :

« لا تلعنوه ، فإنه يحب الله

ورسوله » !!!

وهكذا ، يقيم المسيح والرسول ، المعيار الحق لفضيلة الإنسان - أي إنسان - وهذا المعيار .. هو .. الحب .. وحب الله ورسوله هنا ، يمثل مجالاً أرحب مما قد يتadar إلى أفهمنا .

إن حب الله ، يعني حب آثار رحمته جمِيعاً من بشر ، وشجر وحجر .

يعني حب الحياة كلها ، والإنسانية التي هي زينتها ، ولبابها .

لقد غفر المسيح للخاطئة ، لأنها كانت تتصل بالحياة العظيمة عن طريق علاقة من أوثق علاقاتها ، وهي المحبة .

وأرفض محمد ، أن يُلعن رجل سكير ، لأنه كان يرعى في
فؤاده نفس العلاقة ..

وفي الوقت الذي تكون علاقتنا بالحياة قائمة ،
وصادقه ، فإن أخطاء السلوك ، فقد ضرّا وتها وقيمتها ،
ما دامت لا تأخذ طابع التحدى والإصرار ..

والحب - كما قلنا - أوثق علاقتنا بالحياة .
ولقد يأخذ في مصطلحاتنا أسماء شتى ، فتارة نسميه
الرحمة ، وأخرى نسميه الإخاء ، أو التعاون ، أو البر ..
ولكن اسمه الحق سيظل كما هو الحب ..
 وسيظل «أباً» لكافة العلاقات ، والقيم ، التي تربطنا
بالحياة وتجذبنا نحوها .

وتکفير الخطايا بالحب ، على النحو الذي رأيناه الآن
من الرسولين الكريمين يشير إلى تفسير جديد للخطيئة
للذنب ..

فأفعالنا التي توصف بأنها خطايا ، إنما حملت هذا
الوصف ، لأنها تثبط ولاءنا للحياة ، وتؤذى علاقتنا بها ..
وتكون أفعالنا شريرة ، لا بقدر ما تحمل من شر ، فليس
للشر وجود ذاتي .. بل بقدر ما تعزلنا عن العلاقات
الرشيدة الصحيحة الفاضلة التي تربطنا بالحياة ، وترتبط
الحياة بنا ..

لذلك صوراً فرجهما العظيم ، بل وفرح الله من قبل ،
بالإنسان التائب .. أي الإنسان الذي يعود إلى تصحيح

موقفه من تلك العلاقات التي تصد، بانحياز . ويعينه
بسببها حيا ، وكريما ..
خرب المسيح لهذا مثلا .

« .. ابنا أخذ المال الذي أعطاه له
أيوه ، وسافر إلى كورة بعيدة ، وهناك
بذر ماله .. فلما انفق كل شيء ،
حدث جوع شديد وببدأ يحتاج ،
واشتغل أجيراً الواحد من الناس ، يرعى
له خنافيزه ..

« وكان يشتهي أن يملأ بطنه من
الخرنوب الذي كانت الخنافيز تأكله ،
فلم يعطه أحد ..

« فرجع إلى نفسه ، وقال : كم أجير
عند أبي يفضل عنه الخبز ، وأنا أهلك
جوعا .. أقوم وأذهب إلى أبي ، وأقول
له : يا أبي ، أخطأت ولست مستحفاً أن
أدعى لك ابنا ، اجعلنى كأحد
أجرائك ..

« وقام ، وجاء إلى أبيه ..

« وإذا كان لم يزل بعيداً رآه أبوه ،
 فتحنَّ وركض ، وأسرع إليه وقبله ،
 وقال لعيده :
 « أخرجوا الحلة ، وألبسوه ،
 واجعلوا خاتماً في يده ، وحذاء في
 رجليه ، وادبحوا العجل المسمّن
 وأطعموا الناس ، ونادي قائلاً :
 « لنفرح ، ونسرّ ، لأنّ ابني هذا كان
 ميتاً ، فعاش ، وكان ضالاً ،
 فوجد » . . .

وبعد أن ينتهي المسيح من ضرب هذا المثل يدير
 بصره الودود على الوجوه المصغية إليه ، ويقول .
 « هكذا الله . . أبوكم السماوي . .
 يشتق أن يرى أبناءه البشر يعودون إليه
 تائبين » . . !

وضرب الرسول مثلاً :
 « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين
 يتوب إليه ، من أحدكم كان على
 راحلته بأرض فلادة . . فانفلت منه

دَابَّتْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ .. فَأَيْسَرَ
 مِنْهَا .. فَأَتَى شَجَرَةً ، فَاضْبَعَ فِي
 ظَلَّهَا ، قَدْ أَيْسَرَ مِنْ رَاحْلَتِهِ ..
 « فَبِينَمَا هُوَ كَذَلِكَ ، إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ
 عَنْهُ ، فَأَخْذَ بِخَطَامَهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ
 شَدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ (عَبْدِي) وَأَنَا
 (رَبُّكَ) .. أَخْطَأُ مِنْ شَدَّةِ الْفَرَحِ » ..
 وَيَأْخُذُ الرَّسُولَانَ الْكَرِيمَانَ قُلُوبَنَا
 إِلَى الْحُبِّ أَخْدَاهُ وَثِيقًا ، بِمَا يَتَرَكَّانِ لَنَا
 مِنْ قَدْوَةٍ تَتَمَثَّلُ فِي سُلُوكِ صَادِقٍ
 وَعَظِيمٍ ..

فَالْمَسِيحُ فِي إِحْدَى أَمْسِيَاتِهِ الْآخِيرَةِ
 عَلَى الْأَرْضِ ، يَقْوِمُ عَنْ طَعَامِ الْعَشَاءِ ،
 وَيَأْخُذُ « مَنْشَفَةً » وَيَتَزَرُّ بِهَا ، ثُمَّ يَصْبِبُ
 الْمَاءَ فِي آنِيَةٍ ، وَيَدْعُو تَلَامِذَتِهِ ، فَيَغْسِلُ
 لَهُمْ أَقْدَامَهُمْ وَاحِدًا ، وَاحِدًا ، ثُمَّ
 يَجْفَفُهَا بِالْمَنْشَفَةِ التِّي مَعَهُ .. !

ويغشى تلامذته الحياة والفرز ،
ويحاولون منع المسيح ، لكنه يواصل
عمله العظيم ، وهو يقول لهم :
« الآن تعلمون تفسيره » .

وبعد أن ينجز غسل أقدامهم وتجفيفها ، يقول :
« أنتم تدعونني معلماً ، وسيداً ..
وحسناً تقولون ، لأنني كذلك ..
« فإن كنتُ ، وأنا السيد المعلم ، قد
غسلتُ أرجلكم .. فأنتم يجب عليكم
أن يغسل بعضكم أرجل بعض » .. !!
ويُخصب محمد واحدة المحبة بكل عاطفة ريانة طيبة ،
فيوصي الناس قائلاً :
« إذا أحب أحدكم أخاه ، فليخبره
أنه يحبه » ..



« وإذا آخى الرجلُ الرجلَ ، فليسأله عن
اسمِه ، واسمِ أبيه ، وممَن هو .. فإنه
أوصلُ للمودَّة » ..

ويقول :

« يقول الله عز وجل : المتابعون
لجلالى ، لهم منابر من نور ، يغبطهم
النبيون ، والشهداء » ..

■ □ ■

« إن من عباد الله أنساً ، ما هم بأنبياء
ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء
يوم القيامة ، لمكانهم من الله
تعالى .. !

« قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا من
هم .. ؟

« قال : هم قوم تحابوا بروح الله
على غير أرحام بينهم ، ولا أموال
يتغاطونها .. فوالله إن وجوههم لنور ،
وإنهم على نور ، لا يخافون إذا خاف
الناس ، ولا يحزنون إذا حزن
الناس .. وقرأ هذه الآية .

« - ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم
ولا هم يحزنون - » !!!

إن الرسول يرفع الحب فوق مستوى المنفعة والغرض .. فيقول : « تحيوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها » .

وهو أيضاً يقرر أن الحب يعطى ضعفنا ، ويرفعنا إلى كل مكانة عالية ، عجزت أعمالنا عن أن تصعد بنا إليها .. وذلك حين سأله « أبو ذر » :

يا رسول الله . الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم ؟

فيجيبه الرسول :

« المرء مع من أحب » ..

إن الحب هو الزاد الذي يردد عن البشرية سغبها المضنى ، وهو الرُّؤُى الذي يدفع عنها ظمآنها القاتل .

وهي لا تستطيع أن تحيا ما لم تحب . لأن الحب هو الآصرة العظيمة التي تجمعها بالحياة ، وتمنحها الجناحين اللذين تحلق بهما وتتطير .



والصدق ..

إنه العلاقة الثانية التي نرتبط بها مع الحياة ..

ومكان الصدق من الحب ، جد قريب .

فنحن نكذب حين نخاف ..

نكذب على الناس حين نخافهم .. ونكذب على القانون ،

حين نخافه .. بل نكذب على أنفسنا ونخدعها ، حين

نخافها ..

ومع الحب ، لا يوجد خوف .. وإنـ، لا يوجد كذب .. !

والصدق هنا ، أبعد مدى ، وأرحب مفهوماً من مجرد

الإخبار بالواقع ..

أعني ، ليس هو قول الحق وحسب .. بل هو أن نعيش

الحق نفسه .

هذا ، هو الصدق ، كعلاقة تربطنا بالحياة ، وهو يعني

تحرير أنفسنا من كل ما يجعلها تحيا حياة زائفة مزورة .

يعني أن يشتملنا تطابق واضح ، بين ظاهرنا وباطتنا .

بين حياتنا الباطنة ، وحياتنا الظاهرة .

ويعني أن تكون قوامين بالقسط ، ولو على أنفسنا .

ويعني أيضاً . بذل أقصى الجهد في كل عمل نعمله .
وفي كل موقف نتخذه ..
ولقد علمنا هذا محمد ، وال المسيح .
لقد شئنا على الرياء هجوماً عنيفاً .. وأخبر الرسول أن
« ذا الوجهين . يدعى عند الله كذاكاً » .
فالرياء كذب .. والكذب تزييف لعلاقة ثمينة من علاقات
الحياة ، وقيمة ، وهي الصدق .
من أجل هذا ، كان الرسول يحتفيان بكل مخطيء
يتقدم ، وفي يده وثيقة إدانته .
هذا الذي يسميه عصرنا الحديث . بـ « النقد
الذاتي » .

ولطالما ضرب الله برسوله المثل ، واصطفع منه
الدوة ..

فإذا أخطأ - مثلا - مع إنسان ضرير .. ولو بحسن نية ،
وقف في محراب الصلاة ، والناس من ورائه صفووا
ينصتون له ، وهو يتلو عليهم وثيقة اعترافه ، وأوبته .
﴿ عَبْسَ وَتُولَى ، أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ،
وَمَا يُدْرِيكَ لَعْلَهُ يَزَّكَى ، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ
الذَّكْرِى .. أَمَا مَنْ اسْتَغْنَى ، فَأَنْتَ لَهُ
تَصْدَى ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزَّكَى .. وَأَمَا
مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، وَهُوَ يَخْشَى ، فَأَنْتَ
عَنْهُ تَلَهَّى .. ؟ كَلَّا » .. !!

وإنه ليخشش أعرابياً ذات مرة ، دون عمد . فيصرُّ على
أن يخدشه الأعرابي مثلها .. "
ويقف فوق المنبر في جلال عظيم ، ليقول لأصحابه
الذين يستمعون له :

« من كنت جلدت له ظهراً ، فهذا
ظهري فليقتدُّ منه .. ومن كنت أخذت
من ماله شيئاً فهذا مالي فليأخذ
منه » !! ..

إنه لم يجلد في حياته ظهراً ، ولم يؤلم لأحد ظفراً ..
ولكنه الصدق المطلق مع الحياة ، يمارسه الرسول في
أنقى صوره . وأوفاها بالذمة والطهر ..
وإذا كانت حياته لم تتلفع قط برياء أو ضعف ، فهي
كذلك لم تتلفع قط بغرور . ولا بصلف ..
لقد كان يسابق زوجته ، ويخصف نعله بيده ، ويرفع
ثوبه بنفسه .
ولقد حلب شاته .. وخدم أهله .. وحمل الطوب مع
 أصحابه في بناء مسجده .. وربط على بطنه الحجر من
الجوع !!!
وكان إذا سار في الطريق . ومعه أصحابه ، دعاهم
ليتقدموا عليه ..

★ ★ *

وإذا قدم عليهم ، وهم جلوس ، جلس حيث انتهى به
المجلس ..

وكان يقول لهم دائماً ، حين يدعونه لتكريم خاص :
«إنى أكره أن أتميز عليكم » !! ..

هذا هو الصدق مع الحياة ..
أن نعيشها ، عادلين ، طيبين ، واضحين ، وداعاء ،
بسطاء ..

وأن نمارس مسئولياتها ، ونعانق واجباتها ، لا أن
نتبذل بما فيها من فراغ وترف وجه ..
اقرأوا ..

« .. وفيما كان يسوع صاعداً إلى
أورشليم ، أخذ الأثنى عشر تلميذاً على
انفراد في الطريق .

« وقال لهم : ها نحن صاعدون إلى
أورشليم ، وابن الإنسان يُسلّم إلى
رؤساء الكهنة ، والكتبة ، فيحكمون
عليه بالموت .

« .. حينئذ ، تقدمت إليه أم ابني
زبدي مع ابنيها ، وسجدت ، وطلبت
منه شيئاً ، فقال لها : ماذا تريدين .. ؟

قالت له : أن يجلس ابنى هذان -
يعقوب ، ويوحنا - واحد عن يمينك ،
والآخر عن اليسار فى ملكتك ..
« فأجاب يسوع وقال : لستما تعلمان
ما تطلبان .

« أتستطيعان أن تشربا الكأس الذى
سوف أشربها أنا » .. !!

ما آجزلها من عبارة ... !!
فالحياة ، ليست منصباً فخرِياً . ولا وجوداً شرفِياً ..
إنما هي عمل جسيم دائم صادق ..
وشننا نلتقي بعلاقة أخرى من علاقاتنا بالحياة ..



إنها العمل ..
والحياة بغير عمل ، تفقد ذاتها .. فهى عمل مستمر ،
وصاعد .

هي حركة أزلية ، وأبدية خالدة .. كل شيء فيها يموج
بالحركة والمتايرة ..
هذه المياه الجارية . هذه الرياح السارية .. هذه
الأشجار ، والأزهار .

بل هذه الصخرة التي تبدو جامدة .. والخشبة التي
تحسبيها خامدة . كلها ، وكل أشياء الحياة تُزاول حركة
دائبة ، ونطاطاً موصولاً .

لكن العمل قد ينحرف فيفقد على الفور مزيقه . وقيمه .
من أجل هذا . عُنى « حُبِّ الحياة » ، كما عُنى « صديقها » ،
بأن يُركِّب جميع الخصائص التي تحتفظ للعمل بفيمته
وببنائه .

لقد أرادوا للعمل أن يكون دائماً :

جليلاً ..

نافعاً ..

مستمراً ..

صاعداً ..

فالعمل الجليل ، النافع . المستمر المُؤْلَى وجهه شطر
الأمام .. لا الزاحف إلى الخلف ..

هذا العمل يمثل اسمى واجباتنا ، كما يمثل علاقة كبيرة
من خير علاقاتنا بالحياة ..

وجلال العمل ، يعني الارتفاع بقدراتنا إلى مستوى
الكمال الميسور .. حتى نحقق بها عظائم الأمور . ولا نقنع
بصغارها ..

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا :

« إن الله يحب معالي الأمور . ويكره
سفاسفها ». .

ويقول المسيح ، مطالباً الناس بمزيد من العمل ،
وبعيد من الهمة .

« كل من أُعطي كثيراً .. يُطلب منه
الكثير ». .

ويقول محمد :

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن
يتقنه ». .

ويُحدِّر من الأعمال الناقصة المبتورة ، ويؤثر العمل المستمر ، ولو كان قليلاً ، على العمل الأبتر ، ولو كان كثيراً . ويضرب لهذا مثلاً جميلاً حين يقول :

«فَإِنَّ الْمُنْتَهَىَ ، لَا أَرْضًا قَطْعٍ ..

وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى» .. !!

وهو يريد من العمل أن يكون واعياً . وأن يكون في خدمة التقدم الإنساني .. ولا يكون انتكاساً أو ردة إلى الوراء

وإنه لعظيم باهر . وهو يقول في هذا ما معناه :

«يُذَادُ أَنَّاسٌ مِّنْ أُمَّتِي عَنِ الْحَوْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! فَأَنْهَضُ لِأَشْفَعِ لَهُمْ ، فَيَقُولُ اللَّهُ

لِي :

«يَا مُحَمَّدَ ، لَا تَفْعَل .. إِنَّكَ

لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ..

فَأَقُولُ : يَارَبِّ ، وَمَا أَحْدَثُوا .. ؟

فَيَقُولُ سَبَحَانَهُ : إِنَّهُمْ كَانُوا يَمْشُونَ

بَعْدَ الْقَهْقَرِيِّ عَلَى أَعْقَابِهِمْ» .. !! ..

وَالرَّسُولُ - كَمَا ذَكَرْنَا قَبْلًا - وَكَذَلِكَ الْمَسِيحُ ، كَانَتْ

دُعْوَتَهُمَا حَرْكَةً جَدِيدَةً سَائِرَةً نَحْوَ الْمُسْتَقْبَلِ ، مَتَجْهَةً إِلَى

الْأَمَامِ ذُؤْمَاً .

وإنهم لـيُجلّـان العمل ، ويـهـيـبـانـ بـنـاـ أـنـ نـرـتـفـعـ بـهـ فـوـقـ كـلـ
عـرـضـ رـدـيـءـ ، وـنـجـنـبـهـ كـلـ انـحـرـافـ وـزـيفـ .
وـالـإـنـسـانـ الـذـىـ يـقـضـىـ حـيـاتـهـ فـىـ عـمـلـ صـادـقـ نـافـعـ ،
يـصـيرـ مـوـضـعـ رـعـاـيـةـ اللهـ وـتـقـدـيرـهـ ..

« لا أُضِيع عمل عامل منكم ، من ذكرٍ
أو أنثى »

ولقد لقى رسول الله صلى الله عليه
 وسلم يوماً أحد أصحابه ، وحين
 صافحه ، أحسَّ في كفه خشونة ..
 فسألَهُ :

« يـاسـعـدـ ، مـاـ بـالـ كـفـيـكـ قـدـ
أـمـجـلـتـاـ » .. ? .. !

فـأـجـابـهـ سـعـدـ :
— من أثر (العمل) يـارـسـولـ اللهـ .
فرفع الرسول كـفـيـ سـعـدـ إـلـىـ فـمـهـ وـقـبـلـهـماـ ، ثـمـ قـالـ .
« كـفـانـ ، يـحـبـهـمـ اللهـ ، وـرـسـولـهـ » .. !!



هكذا . إن بُرُّ محمد والمسيح بالحياة ..
ام تجدها بهما عاطفة عابرة . بل وعى رشيد . وإدراك
سديد لتيدهما . وذغم هائل لكل القيم والقوى التي تبعث
فيها الأزدحام والتالق ..

وعلى راسها جميعاً ما ذكرناه - الحب - والعمل .
ولقد عاشما حياة مترعة بالحب . وبالصدق . وبالعمل .
وكان لهما مع الزمان رحلة من أمجد . وأنفع . وأبقى
الرحلات .

والاليوم ، ونحن نشيد من أمالنا ، ومن إصرارنا بناء عزم
جديد قادر . نريد أن نحمي به حياتنا من الدمار ، ولنخن
إكباراً لهذين الرائدين الجليلين والإخوة لهم سبقوهما
بالإيمان وبالسعى ، من أجل أن تبقى الحياة مزданة بأحياء
مباركين .

وإذا كانت الحروب هي شر ما يحيق بالحياة من خطر ..
وإذا كان « محمد . والمسيح » قد أعلنا في ولاء
وإصرار . حق الحياة في الحياة .

فإنه لمن الضروري إذن ، أن نبصر موقفهما من
السلام . وكيف أراداه ، وعلى آية صورة تمثلاه ..
وإنه لمن الخير لأنفسنا أن نفقه جيداً الدور الذي قام
به محمد وصاحبه لإقرار السلام في الأرض .. وجعله
شعيرة من شعائر الله !! ..

□ ■ □ ■

السلام ..

عندما ترنّ في سمع الظاميء العطشان كلمة « ماء » ..
وفي سمع الجائع السّغبان كلمة « خبز » ..
وفي سمع المشرف على الغرق ، المُخاذل تحت ضربات الموج كلمة « شاطئ » ..
لا يكون لهذا الرنين مهما يكن صادقاً ، إلا قليلاً جداً ،
مما هو للرنين الصاہل القوى المفرح ، الذي تركه في عصر الذرة كلمة « سلام » ..
ولو أَنَّ الحرب . وحدها هي التي تهدد وجودنا كله ،
لهان الأمر ، أو كاد ..

غير أنَّ الذي يُحاصرنا بـأخطاره الماحقة ، والذى تعتبر الحرب نفسها نتْيَجَةً له .. هو التفكير المُلتبث المغرض ..
وإنَّ لـأَذْكُر الفزع الشديد الذي غشيني ذات يوم قريب ، حين طالعت خطاباً . أو تصريحًا لـرجل مسؤول في أوروبا ، يشغل منصبًا خطيراً يقول ..
« لابد من الحرب ، دفاعاً عن الحضارة المسيحية » ..
وقلت لنفسي يومها .
مسيحية ، وحرب ..؟

أى اتفاق « سعيد » هذا .. !!!
إنَّ هذه العبارة ، التي تقال في عصرنا هذا ، المتخضر
كثيراً ، والمتقدم جداً .. (!) لـتـشير إلى « الفضيلة » التي
طالما تنكرت فيها « رذيلة » العدوان والبغى ..
فمعظم الحروب التي أثخت جروح الحياة ، كان لها

منطق تسويفي ، وحجة تبرر قيامها ، وتمنحها
المشروعية ، وجواز المرور ... !

فباسم الدفاع عن الأديان تارة .. وباسم الحرية .
وحمایة حقوق الإنسان تارة أخرى .. وباسم تمدين
الشعوب المختلفة .. وباسم المجال الحيوي للدول التي
ضاقت الأرض فيها باهلهَا ..

وباسم أشياء كثيرة ، كانت تبدو ، وكأنها منطقية
وعادلة .. قامت حروب صبغت الأرض بالدم .. وغطّئت
ترابها بالأشلاء والجماجم ..

وكان وراء تلك الحروب .. ووراء شعاراتها الكاذبة ،
ذلك الذي أسميناه آنفاً .. بالتفكير المُلْتَاث المغرض ..
هو « مُلْتَاث » .. لأنَّه يجهل إرادة التاريخ ..
« ومغرض » .. لأنَّه يقاومها ويتحداها ..

أى أنه بتعبير آخر .. كان وراء تلك الحروب ، جهل
 بإرادة التاريخ ، وعصيان لها .

وهنا ، نضع أيديينا على « نقطة البدء » في موقف محمد
وال المسيح من الحرب ، ومن السلام ..
وهنا - أيضاً - تقُنُى تلك الشبهات التي تُلقى في رُوع
الكثيرين منا ، أنَّ لِمحمد من الحرب موقفاً يُغاير موقف
المسيح ..

إنَّ من يحترم الإنسان ، والحياة ، مثلما احترمها
المسيح والرسول ، لن يكون حرصه على السلام
إلا عظيماً .

فالسلام ، هو المجال الآمن الذي تترعرع فيه مواهب البشر ، وقدراتهم ، وهو السلوك الأوحد اللائق بناس يجمعهم على الأرض عناء مشترك .. ورجاء مشترك .. وسعى مشترك .

ناس ، أبوهم واحد .. وأمهم واحدة ..
ناس ، ليسوا - مهما يتباغضوا ويتباعدوا - سوى إخوة وأشقاء ..

من أجل هذا ، كانت أولى الحقائق الجديرة بأن يرتد إليها صوابهم ، هي ذي ..
ومن هنا ، بدأ المسيح وأخوه دعوتهما للسلام ..
قال المسيح لتلامذته :

« معلمكم واحد ، المسيح .. وأنتم جميعاً إخوة » .

وقال محمد :

« كونوا عباد الله إخواناً .. كما أمركم الله تعالى » .

ولم يكن « الإباء » مجرد كلمة يُردّد انها . بل كان كما رأينا من قبل وخلال عرضنا لموقفهما من الإنسان .. عقيدة ، وسلوكاً .

لقد ذكرنا في مُبْتَكِر هذا الكتاب أن حياة كل من الرسولين العظيمين ، كانت طاهرة ، لاشيئه فيها .. ولم يحدث أن أخذ عليهما شيء - أى شيء - من التزييد والإدعاء .

ولقد دَعُوا إلى الرحمة .. فكان لابد أن يكونا رحيمين ..
وَدَعَوَا إلى العدل ، فكان لابد أن يكونا عادلين .
وَدَعَوَا إلى السلام ، فكان لابد أن يكونا مساملين .
ولقد كانا كذلك فعلاً .. وعند أكثر مستويات الكمال
البشرى ارتفاعاً عاشا حياتهما ، ومارسا دورهما الفذ
العظيم .

إِنْ أَقْوَالُهُمَا فِي السَّلَامِ ، لِمَشْرِقَةِ إِشْرَاقِ الصَّبَاحِ الْمُبْلِلِ
بِقَطْرِ النَّدْيِ . وَإِنْ سُلُوكُهُمَا مَعَ السَّلَامِ ، لِمَجِيدِ !!
إِنَّ النَّاسَ يَحْارِبُونَ ، لِيَفْرَضُوا مُشَيْئَتَهُمْ .
وَلَقَدْ أَغْنَى الْمُسِيحُ فِرْضَ الْمُشَيْئَةِ هَذَا حَتَّى لَوْ كَانَتْ
مُشَيْئَةُ عَادْلَةٍ وَفَاضِلَةٍ .
قال لِتَلَامِذَتِهِ وَهُوَ يُوصِيهِمْ :

« وَأَيْةً مَدِينَةَ دَخَلْتُمُوهَا ، وَلَمْ يَقْبَلُوكُمْ
فَاخْرَجُوا إِلَى شَوَارِعِهَا وَقُولُوا : حَتَّى
الْغَبَارُ الَّذِي لَصَقَ بِنَا مِنْ مَدِينَتِكُمْ نَنْفَضُهُ
عَنَا » !

وَالنَّاسُ يَحْارِبُونَ مِنْ أَجْلِ الْأَرْضِ يَسْتَعْرُونَهَا .
وَيَسْتَغْلُونَهَا .

وَلَكِنْ اسْتَعْمَارُهُمْ هَذَا وَغَلْبُهُمْ ذَاكَ . أَنْ يَدْرُدُهَا .
« يَسْيَئُونَ لِلْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ نَاءٌ بِعِمَّيْعِ الْمُسْلِمِينَ ، يَسْيَئُونَ
الْمُسْلِمِينَ

« طوبي للودعاء ، لأنهم يرثون الأرض » .

وهو - أعني المسيح - يضع مبدأ هائلاً ، ورشيداً في العلاقات الإنسانية ، فيقول :

« من ليس علينا .. فهو معنا » .
وينفر من الحرب نفوراً شديداً ، ويحذر من عقباها ،
فيقول :

« كل مملكة منقسمة على ذاتها
تخرب .. وبيت منقسم على بيت
يسقط » .

ويحب الحياة وديعة ، مزدهرة ، حافلة بالمباهج والحب ، ويبث في الأفئدة طمأنينة ، وأملأ ، ويخفف عنها روعها ، ويتمنى للحياة عمراً طويلاً في هذه الكلمات :

« إذا سمعتم بحروب وقلائل ،
 فلا تجزعوا .. لأنه لابد أن يكون هذا
أولاً .. ولكن لا يكون المتهي
سريعاً !! .. !!

كم هي عذبة ، وطيبة ، ومتفائلة ، كلماته الحانيات
هذه .. « لا يكون المتهي سريعاً » !! .. !!
وما ترك - ابن الإنسان - ثغرة ، تستطيع البغضاء ،

ويستطيع الشر أن ينفذ من خلالها إلى الحب وإلى السلام ، إلا أوصدها ، وتحامها .

ومن الحب ، والسلام ، والإيمان ، والطهر ، شاد حول الحياة سياجاً لا يرام .

فدعوته المضروب على خده الأيمن ، أن يعطى لضاربه خده الأيسر .

ودعوته من اغتصب رداً ورداً ، أن يترك الإزار أيضاً .
وتحذيره المجلجل ، للذين تجىء منهم العثرات المفنية لهذا العالم .

وإعلانه ، أن « كل من غضب على أخيه باطل ، يكون مُستوجب الحكم » .

وقوله :

« إن أعترك يدك فاقطعها » .

■ □ ■

« ما جئت لأهلك ، بل لأخلص » .

■ □ ■

« أريد رحمة .. لاذبحة » .

كل هذا الهدى ، سياج منيع أقامه المسيح حول الحياة .

إنه لم ينتظر حتى يسىء الناس إلى الحياة بالقتل ..
قتلُّاهم دون ذلك بأبعد بعيدة .. تلقاهم عند الغضب -
مجرد الغضب - وصاح : هذا قتل .. !!

فهل يعلم هذا - جيداً - الذين يؤمنون بال المسيح في
زماننا ، إنه لخليق بهم أن يعلموا .. !
وخير لهم الا يضلوا في زحمة البغضاء والطمع ، عن
كلماته المضيئة .. ومشيئته السديدة .

■ □ ■

ولمثل هذا الذي يعمل من أجله العاملون .. عمل إنسان
من أكثر أبناء الحياة برأًّ بها ، وغيره عليها .

إنه « محمد » ...

لقد وقف يبلغ عن ربه في ولاء الصادقين . ويقين
المرسلين أنه :

« من قتل نفسه بغير نفس ، أو فساد في الأرض ، فكانما
قتل الناس جميعاً ». .

انظروا ...

إن الحياة لا تتجزا .

ليس هناك حياة لي .. وحياة لك ..

إن الحياة كائن واحد .. وأى مساس بأى جزء منها ،
مساس بها كلها ، وعدوان عليها جميعها .. !!

وكما اعتبر المسيح البغضاء كالقتل .. اعتبر محمد
القطيعة قتلاً ، فقال محذراً منها .

« من هجر أخاه ستة .. فهو كسفكٍ

دمه » .. !

وإنه كذلك ليعلم أن الناس يتحاربون ويقاتلون من

أجل الأرض يستعمرونها . فيحتمي السلام من هذا السبب .. ويعلن أزء من غير تخوم الأرض لينال شبرا . ليس له فيه حق ، بريئ منه ذمة الله ، ورسوله !! ويختخص إلية إتنان : غرس احدهما نخلًا في أرض الآخر .. فيقضى لصاحب الأرض بأرضه ، ويأمر صاحب النخل أن يخرج نخله منها .. فتضرب أصولها بالفؤوس فورا . !

ويقول في حديث زاجر عظيم :

« من اغتصب - شبرا - من أرض طوقة إلى سبع أرضين » .

ويعطى هذا المعنى مزيدا من التوكيد ، لعلمه بما يجره الغصب والطمع من شقاق ، ونزاع . وقتل . فيقول :

« من اغتصب مال أخيه بيمنيه - أى بالقوة - حرم الله عليه الجنة - وأدخله النار .. »

سأله سائل : يارسول الله ، وان كان شيئاً يسيراً ؟ قال :

« وإن كان عوداً من أراك » !!

ويسأل سيدنا محمد - كما أسلفنا - عن أفضل الأعمال ، فيجيب :

« بذل السلام للعالم » .

ويربط الإيمان بالحب، ليُنشئنا دعاء سلاماً للحياة وأمناً .

فيقول :

« والذى نفسي بيده ، لاتؤمنوا حتى
تحابوا .. ألا أدلكم على شيء إذا
 فعلتموه تحابيتم ؟ .. أفسوا السلام
 بينكم » . . .

ويرفع السعي من أجل السلام إلى مكانة تفضل جميع
العبادات فيقول في حديث راتع .

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة ،
والصيام ؟ ؟
إصلاح ذات البين » !!

ويستبعد كل أسباب الشجار ، حتى التافه الضليل
منها . فيقول .

« إذا مسر أحدكم في مجلس ،
أو سوق ، وفي يده نبل فليأخذ بنصالها
لا يخدش بها أحداً » . . .

ويبلغ عن الله سبحانه قوله :

« ادفع بالتي هي أحسن السيئة » .

· · ·
ويسائل سائل :

يارسول الله ، دلني على عمل ، إذا عملته أكون قد فعلت
الخير جميماً .

فيجيبه الرسول عليه الصلاة والسلام .
لاتغضب » .. !

لقد تتبع الرسول كل آسباب البغض ، وال الحرب ، في
سلوك الفرد ، وفي سلوك الجماعة ، فكافحها ونهى عنها .
ولعل سائلاً يسأل .

إذا كان محمد قد أنزل « السلام » من قلبه ، ومن
شريعته هذا المنزل الرفيع .. فكيف إذن حمل سيفه
وحارب .. وكيف إذن ، جعل الجنة تحت ظلال السيوف ؟ !!
سؤال عادل ، ومنطق أمين ..

والإجابة عنه ترجع بنا إلى نقطة هامة بدأنا بها حديثنا
عن السلام .. إذ قلنا إن الحروب تنشأ دائماً ، أو غالباً
من سبب واحد . هو جهل إرادة التاريخ ، ومقاومتها .
حيث يوجد هذا السبب ، يوجد لا محالة تحفز وحرب .
ذلك أن التاريخ ، الذي هو تطور إنسانى زاحف ، لا راد
لسيره .

التاريخ هذا .. ماض بالحياة إلى غايات جديدة دائماً .
وكل مرحلة جديدة منه ، تفرض نفسها بقوة الميلاد ،
وبقوة الضرورة التاريخية التي آهابت بها لتجيء .
كما أن مرحلة قديمة مائلة للغرق ، تحاول التثبت
والبقاء .

وتصطفع كل مرحلة لنفسها مؤمنين من الناس
وأنصاراً ..

وهنا يقف الجديد ، والقديم وجهاً لوجه ..
وحين تكون هذه المواجهة تكون الثورات ، وتكون
الأحداث الكبيرة . وكلما أمعن أنصار المرحلة الأفلة في
جهل إرادة التاريخ ، وفي مقاومتهم لوليده الجديد ، يكون
الصدام أمراً محتملاً ..

وهذا ما حدث أيام الرسول عليه الصلاة والسلام .
قامت حروب .. كان سببها الجهل بإرادة التاريخ ،
ومقاومة هذه الإرادة .

ولم تأت المقاومة من جانب الرسول . بل من الجانب
الآخر المعادي له . أما هو ، ودعوته . فقد كانوا يمثلان
الجديد القادر .. يمثلان إرادة التاريخ نفسه ..

وهذا واضح تماماً ، من ظروف الدنيا أيام بعثته ، ومن
طبيعة دعوته التي جاء بها .. ولقد أشرنا لهذا في الفصل
الثاني من فصول الكتاب .

أنا لا أحاول هنا الدفاع عن الرسول ، ولا أحاول تبرير
تضليله .. فليس في حياته العظيمة كلها ما يدعو لمثل هذه
المحاولة .

وإنما أحاوِل افتراض أن « السلام » نفسه تجسد وصار
إنساناً .

فماذا كان هذا الإنسان صانعاً تجاه الظروف المعادية
التي ناوَتَ محمدًا ..

إن الإجابة عن هذا السؤال يسيرة ، إذا نحن أدركنا
المفهوم الصحيح للسلام ..
فالسلام ليس هروباً من المسئولية .. وليس إذعانًا
لقوى الشر ، وليس مسايرة للخطأ .. وليس عجزاً عن
الاختيار ، والممارسة ..

وبعبارة واحدة . السلام قيمة تعبر عن نفسها
باليحاب ، لا بالسلب .

وأكثر الناس تقديرًا للسلام ، وحاجة إليه ، رسول جاء
يدعو إلى عبادة الله ، وتركيق النفس ..

إن السلام يمثل « الوطن » لدعوة من هذا الطراز ..
وقد لاذ محمد بهذا الوطن .. لا يريد من الناس سوى أن
يتركوه يبلغ كلمات ربه . ويمارس واجباً يملأ نفسه ،
ويدعو دعوة لاتقاوم ، إلى التبشير به ، والعمل في
سبيله .

وسرع ، فأعلن « تعايشاً سلماً » ، عادلاً .

« لكم دينكم .. ولى دين » !!! ..
ولكن أعداء التاريخ ، لم يتركوه ، ولم يمهلوه ..
لم يذروا دنيئة إلا ارتكبوها معه ..
حصَّبُوه بالطوب ..

سلطوا عليه سفهاءهم ، فغصروه بروث البهائم ، وهو
ساجد ينادي ربِّه !!! ..
حاصروا أهله ، وعشيرته حصاراً اقتصاديًّا خانقاً !!

مارسوا شر الجرائم ، وأرذلها ، مع الفقراء
والمستضعفين الذين اتبعوه .. !!
ثلاث عشرة سنة ، قضاها وسط مؤامرات لاتهدأ ،
واعتداءات لا ترعوي .. وهو في صبره ، وفي حلمه ، وفي
السلام الحق الذي يريده ويحبه ، ويقمني دوامه ..
يمعنون في إيذائه ، وفي الكيد له .. فيمنع في الصفح
عنهم ، وفي الدعاء لهم .
ولاتشغله جراحه الثاغبة ، وألامه اللاهبة عن الابتهاج
من أجلهم :

﴿ اللهم اغفر لقومي ، فإنهم
لا يعلمون ﴾ .. !!

لنتأمل جيداً كلمة - لا يعلمون - فإنها تمثل إدراك
الرسول لحقيقة المشكلة - جهل أعدائه بإرادة التاريخ ،
التي هي إرادة الله من قبل .
وماداموا - لا يعلمون - فإن واجب الرسول أن يعلمهم ..
وهنا يتضح السر العظيم الجليل في صبر الرسول
عليهم ثلاثة عشر عاماً ..
ويستبين فهمه الرشيد لحقيقة السلام ، الذي هو
إيجاب ، لا سلب .. ومواجهة .. لاهروب .. !!
لقد كان محمد ، وهو يصبر على أذاهم ، ويعلمهم ،
يمارس سلاماً حقيقياً ، فهو لم يحمل عليهم ، ويفسر على
هولهم .. خوفاً أو استسلاماً .
بل ، لأنهم لا يعلمون .. وعليه أن يعلمهم ..

لابصرون .. وعليه أن يفتح عيونهم .
وهذا ، هو السلام ..

السلام الإيجابي ، الذي يواجه مسئoliاته ، دون أن يحمله العدوان على التهرب ، ولا على المقاومة غير المشروعة ! ..

لكن هؤلاء - الذين لا يعلمون - يستنفدون - آخر الأمر - كل حقهم في المعرفة ، وكل فرصتهم في السلام .. ذلك أنهم يصرّون إصراراً وبيلاً ، لا على التشبيث بباطلهم فحسب .. بل وعلى خنق الدعوة وإبادتها .. وقرروا قتل محمد عليه صلاة الله وسلامه ..

وحتى بعد هذه الجريمة السافرة ، لم يشا الرسول أن يقاوم .. على الرغم من أن المقاومة أئذ ، صارت حقيقة مشروعاً له ، بل وصارت تعبيراً آخر عن العدل ، وعن السلام ..

لم يشا أن يقاوم ، وهاجر إلى المدينة .
ومن المدينة سارت الأحداث في الطريق الذي جعل المقاومة محتومة ولازمة ..

. لم يقاتل الرسول ، حين قاتل ، من أجل توسيع ، أو امتلاك ، أو سيادة بل حصر جهاده « في سبيل الله » .
وعبرة « في سبيل الله » هذه .. تمثل الإطار الذي خاض الرسول المعركة داخله .

ولايقاد شيء يكشف عن ولاء الرسول للسلام ، مثلما يكشفه سلوكه في الحرب .

فعلى كثرة الغزوات التي خاضها ، لم يكن عدد الضحايا فيها جميعاً ، سوى بضع عشرات من كلا الفريقين ... !

وحيث علم يوماً أن - خالد بن الوليد - أسرف في القتل في بعض غزواته ، جلجل غاضباً ، ورفع يديه إلى السماء معتذراً إلى الله ، ضارعاً وهو يقول :

« اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ،
اللهم إني أبرأ إليك مما صنع
خالد » . . . !!

ولقد كان أمره لأصحابه بين يدي كل معركة :

« لا تقتلوا امرأة »
« ولا شيخاً ». .
« ولا وليداً ». .
« ولا تحرقوا زرعاً ». .
« ولا نخيلاً ». .
« ولا تنهبوا ». .
« ولا تمثلوا بأحد ». .
« واجتنبوا الوجوه ، لا تضربوها ». . !



وكما جاء عيسى ليكمل الشريعة .. جاء محمد ليستأنف المسيرة .

ولقد كان « الصليب الكبير » الذي أعده المجرمون للمسيح .. يتراهى لرسول دوماً ..
وما كاز من الخير أن يمكّن المجرمون من انتصار جديد .. يتلمسون فيه بدم رسول شهد .. !
ما كان من الخير أن تخنق دعوات الهدى في المهد ، كل مرة .

وإذا كان المسيح ، قد حمل « صليبيه » من أجل السلام . أقول « حَمِلَ » لا أقول « صُلِبَ » فإنه قد شبّه لهم ، فخاب فالهم !!
فإن محمداً ، قد حمل « سيفه » من أجل السلام .
كلاهما . سيف .

الصلبيب الذي حمله المسيح ، سيف ، أراد اليهود أن يقضوا به على « ابن الإنسان » ورائد الحق ..
وسيف محمد . سيف ، أراد محمد أن يقضي به على أعداء الإنسان . وأعداء الحق
وغاية الرسولين واحدة : السلام .

في دور المسيح ، كان السيف مُسلطًا على الحق .
وفي دور محمد ، كان السيف مُسلطًا على الباطل .
وفي سلوك المسيح . عبر السلام عن نفسه بالرحمة ..
وفي سلوك محمد ، عبر السلام عن نفسه بالعدل .
وهكذا استكمل جناحيه اللذين يحلق بهما عاليًا ..
والرسول لم يحترف القتال ، ولم يكن له هواية ..

وإنه ليعلم أصحابه ، ويرسم لهم الحدود المشروعة
للنزول :

« إيه الناس ..
لاتسموا لقاء العدو ..
واسألوا الله العافية ..
وإذا لقيتموهם ، فاصبروا » .

أرأيتم
إنه إنسان ودود ، مسالم .. لا يريد لقاء العدو ،
ولا يتمناه .

وإنه ليسأل الله في ضراعة ، أن يباعد بينه ، وبين هذا
اللقاء .

ولكن ، إذا اضطرب إليه واجب الدفاع عن الحق ،
وتأنيب الباطل فسينهض من فوره ، ويصبر على مشفات
النضال .. !!

ولقد عاش المسيح - في دعوته - ثلاثة أعوام
وعاش محمد - في دعوته - ثلاثة وعشرين عاماً .
وعلى الرغم من قصر الزمن الذي عاشه المسيح داعياً ،
وعلى الرغم من تسببه بالتسامح المطلق .. فقد كانت
مكاييد المتربيصين به تشد زناد غيظه ، فيزجرهم بكلمات
شداد .. ويقاد - أحياناً - يجنج إلى القصاص ، ويُشيد
بالقوة العادلة ..
فهو - مثلا - يقول :

«إذا شتمك أخوك ، فوبخه .. فإن
تاب فاغفر له» .

ويقول :

« حينما يحفظ القرى داره متسلحا ،
 تكون أمواله في أمان » .

وكتيراً ما نراه ، وهو يخاطب - اولاد الأفاسى - يحتمد
غيظا .. وકانه يرحب في ان يضربهم . ويدحرجهم على
الأرض ، كما فعل بموائد الصيارة . واقتاص الباعة حين
دخل الهيكل .. ولكن إدراكه العميق لدوره . وإيمانه بأنه
 جاء الدنيا ليلاقى عليها درساً عظيماً في التسامح والمحبة
 جعلاه يكظم غيظه ، ويشرب كأسه في سلام . «
 قال لمن أراد أن يدافع عنه بسيفه ، حين هاجمه أعداؤه
 ليلاً ، ليأخذوه إلى رؤساء الكهنة ، كى يحاكموه

«رُدّ سيفك إلى مكانه .. أتظن أنني
 لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم
 لي أكثر من اثنى عشر جيشاً من
 الملائكة ..؟؟

«فكيف تكمل الكتب ..؟ إنه
 هكذا ينبغي أن يكون» .. !!
 أجل .. هكذا ينبغي أن يكون ..

مادام قد جاء ليعلم الناس ، كيف يمكن
للحب أن يتفوق على الكراهة ،
 وللسلام أن يتصر على المؤامرة .



وبعد .. فهكذا كان ولاء محمد
 والمسيح للحياة ..

وهكذا كان موقفهما مع السلام .
 لقد حملأ تبعات الوجود .. وأدّيَا
 أمانة الحياة على نسق جدّ عظيم .
 وعلى الطريق الذي سارا عليه ،
 لا تزال كلماتها ترسل ضياءً باهرًا ،
 ولا تزال الدنيا تجد سكينة وأمناً ، في
 كلمات المسيح .

«سلاماً ، أترك لكم» ..

وفي كلمات محمد :
 «كونوا عباد الله إخواناً» ..



■ الفصل السادس ■

وَالآن . . . بَارَابَاسُ . .
أَمِ الْمَسِيحُ . . ؟

عندما قاد اليهود في أورشليم روح اس
عيسي إلى « بيلاطس » الحاكم الروماني .
طالبين بصلبه .. أطل « بيلاطس »
عليهم ، ومضى يحاورهم في أمر المسيح ،
إذ كان يعلم أنهم يريدون إسلامه للموت
حسداً من عند أنفسهم ..

قال لهم : « ماذا فعل يسوع ، الذى يُدعى
المسيح » ..
وأجاب اليهود ، ورؤساء الكهنة : « إنه يفسد
الأمة » !!

وقال بيلاطس : « إنى لا أجد علة فى هذا الإنسان » ..
ونبحث كلاب أورشليم نافذة بنباحها من الزاوية
الحادية ، التى تخرج « بيلاطس » وتكرهه على الأذعان
لنباحها .

« قالوا : « إنه يهيج الشعب .. ويمنع أن تُعطى جزية
لقيصر .. وإذا لم تصلبه . فلن تكون محبًا لقيصر » !!
وقال بيلاطس : « إننا فى العيد وسنطلق كما هي العادة
واحداً من المحكوم عليهم .. فليكن هو المسيح » ..
وتهاوش رؤساء الكهنة ، وتراخض يهود أورشليم
كالخراف الضالة .. وصاحوا جميعاً : « لا .. لا .. أطلق
سراح « بار Abbas » ، أما المسيح فأصلبه » !
ويلح « بيلاطس » كى ينزلوا عند رأيه ، فيقول لهم :
« لقد فحصت هذا الإنسان قَدَّامكم ، ولم أجده فيه علة ،
ولا هيرودس أيضاً ، وجد فيه شيئاً مما تشكون منه » ..
ولكنهم يلُّون السنتهم كاذناب الحيات ، ويصيرون :
« خذ هذا .. وأطلق لنا بار Abbas » ..
« بار Abbas .. بار Abbas .. - أما
المسيح ، فأصلبه » ..

يقول إنجيل يوحنا

« . وكان - بارباس - لِصا » . . .

ويقول إنجيل لوقا :

« إنه كان مطروحاً في السجن لأجل
فتنة ، وقتل » .

ويقول إنجيل مرقس ، مثل هذا أيضاً .

■ □ ■ ■

إن نفس الخيار ، يُقدم اليوم ويُغلّن
وإنه لمن حسن الحظ أن الذين يختارون ان يوم . ليسوا
يهود أورشليم ولكنه العالم كافة .. والغرب المسيحي
بخاصّة !!

لقد رفض أحبّار اليهود في ذلك اليوم البعيد . أن
يختاروا المسيح . لأنّه جماع فضائل لا يطيقونها .
ومشرق عصر عظيم لا يسمح لنقائصهم بالازدهار ..
وحتى حين خجل مثل روما العاتية الباغية . إن
يشترك في المؤامرة الدنسة . وتوسل إليهم كي يدعوا
للمسيح حريته .. رفضوا . وصاحوا به .. بل ببارباس ..
الحرية لبارباس .. والصلب للمسيح !!

ترى ، ماذا يكون جواب البشرية اليوم ، حين يتطلب
إليها أن تختار .. ؟
إن محمداً رسول الله ، ليهديها إلى الجواب الحق ..
ولقد سبق إلى الاختيار السديد ..

لقد اختار المسيح . أى اختار فضائله التي جاء
ـ هو - ليبعثها من جديد
فمنذ ألف وأربعين عاماً إز قليلاً . وهو قائم هناك . في
شبه جزيرة العرب ، يبلغ رسالات ربه ، أعلن أن المسيح
سيعود .. وسيملأ الأرض نوراً ، وسلاماً . وعدلاً . !! هذا
هو ، يقول :

«والذى نفسى بيده ليُوشكَنَ أن ينزل
فيكم ابن مريم مُقْسِطاً» .. !!

ترى . ماذا نفهم من عودة المسيح ..
إن الجواب يسير ، إذا عرفنا ماذا كان المسيح
اكان ذلك الجسد الناحل . والشعر انمرسل ..
والثلاثين عاماً التي سجلتها له على الأرض شهادتا الميلاد
والوفاة .. !؟

كلا .. إن المسيح ، هو دعوته .. هو المقتل الأعلى الذي
تركه واعطاه . هو الحب الذي لا يعرف الكراهيّة .. هو
السلام الذي لا يعرف الفلق . هو الخلاص الذي لا يعرف
الهلكة ..

وعندما تتحقق هذه كلها على الأرض ، تتحقق في نفس
الوقت ، عودة المسيح ..

أجل : إن المسيح الذي سيعود . والذى تنبأ له
الرسول بالرجُوع ، هو هذا ..
هو السلام ، والحب ، والحق . والخير . والجمال .

ونحن ، مع « الرسول الأمين » ، نصيّح
المسيح . لا باراباس
الحق . لا الباطل .
الحب .. لا الكراهة
السلام .. لا الحرب
الحياة .. لا الفناء .

وإنا إذ نرفع في آيماننا هذا الاختيار . ليهدينا إليه
وشي عظيم بحتفينه . وافضليته . وقيمتة
ويهدينا إليه بصر ثاقب باحتياجات عصرنا الذي يمرفه
القلق والخوف ..

وبصر ثاقب بالمصير المروع الذي سيتحقق بالعالم إذا
كتب النصر مرة أخرى للصرخة السائلة التي نقول .
باراباس .. لا المسيح .. !!!

إننا نعرف جيداً . ونذكر تماماً .. إن « مائة وخمسين
مليوناً من البشر ، ذهبوا ضحية الحربين العلنيتين
السابقتين . !!

« مائة وخمسون مليوناً .. سايبين قتيل ، ومشوه ،
وجريح . ومفهود !!

قتلـى مـيـادـينـ الـحـرب .. وقتلـىـ معـسـكـراتـ الإـبـادـة ..
وـقـتـلـىـ الـغـارـاتـ الـجـوـيـة .. وـقـتـلـىـ الـأـوـبـثـةـ الـتـيـ تـذـرـوـهـاـ رـيـاحـ
الـحـربـ الـعـنـقـةـ .. !!

« مائة وخمسون مليوناً » .. كانوا حصاد الهشيم
والحصاد الأليم ، لحروب خلقتها . واضرمتها . الروح

التي تؤثر « باراباس » .. وترفض « المسيح » .. !!
الروح المكفر القاتم ، الذى ترى فى الحرب صفة .
وفى القوة امتيازاً .. وفي السرقة سيادة ، ونبلاً .. !!
الروح القائظ الملتحاث ، الذى لا يحب الحب .
ولا السلام . ولا الحق ..

تُرى ، هل يسيطر هذا الروح ، وينشر على الحياة
الجميلة ضبابه وظلماته ..؟؟
تُرى هل يقتحم الأفق الوديع ، المشرق ، نباح الكلاب
من جديد :

باراباس .. باراباس ..
أما المسيح ، فيصلب ..
أما السلام ، فيصلب ..
أما المحبة ، فتصلب ..

هل يمكن أن يحدث ذلك مرة أخرى ..؟؟
إن التفاؤل الصادق الذى ملأ به محمد رسول الله
آفئتنا ، ليجعلنا نجيب فى يقين راسخ : لا ..
لن يحدث ذلك مرة أخرى ..
لقد أقسم « رسول الله محمد » أن المسيح قادم ، ليملأ
الأرض قسطاً وعدلاً .
ونحن نؤمن بصدقه ..

ونؤمن بأن عودة المسيح هذه .. تعنى انتصار القيم
التي كان المسيح يُمثلها ، والتي قهر بها الرسول عالم
الوثنية والظلماء .

تعنى انتصار الإنسان ، وانتصار الحياة ..

تعنى سيادة الحب ، وسيادة السلام ..



عندما هاجم غوغاء اليهود بستان الزيتون ليقiblyوا
على المسيح ، تقدم من الحرس ، وسألهم :
« من تطلبون » .. ?؟ ..

أجابوه : « نريد الناصري » ..

فقال :

« أنا هو .. ولست أسئل لكم إلا شيئاً
واحداً ». .

ثم أشار بيد أمينة حانية صوب تلاميذه الذين كانوا
معه في البستان ، واستأنف حديثه مع الحرس قائلاً :

« أن تدعوا هؤلاء ، يذهبون
لبيوتهم ، حتى أستطيع أن أقول لأبي
حين ألقاه :

« إن الذين أعطيتني ، لم أهلك منهم
أحداً » !! .. !!



انظروا ...

في هذه المbagاة الشّريرة المذهلة ، لم يذكر نفسه ،
ولا حياته .. وإنما ذكر مسئوليته الكبرى تجاه
الآخرين .. !!

لم يشترط لنفسه نجاة ، ولا سلامة .. وإنما اشترطها
للآخرين ..

وذلك كي يستطيع أن يقول لربه حين يلقاء :
«إن الذين أعطيتني ، لم أهلك منهم
أحداً» !! ..

هذا هو روح العصر الذي يبشرنا محمد بمجيئه ..
والذى نرقبه صابرين .. واثقين .. عاملين ..
عصر يتتفوق فيه الإيثار ، والحب ، ويحمل الناس فيه
مسئوليّة وعيهم ، وأمنهم ، ورخائهم ..

□ ■ □ ■

والواجب الذى سنذكره دؤماً ، كلما ذكرنا المسيح ،
ومحمدًا ..
• هو .

- أن نجعل لوجودنا الإنساني حقيقة ، ومعنى ..
- وأن نخُّص الإنسان والحياة بالنصيب الأوفى من تبعات رشدنا ..
- وأن يكون سبيلنا لهذا ، الحق القوى .. والمحبة اليقظى ..



فہرست

صفحة

● الإهداء	٧
● مقدمة	٩
● مراجع	١٢
● الفصل الأول (سocrates يقرع الأجراس)	١٣
● الفصل الثاني (الهدایة ترسل سفائنها)	٢٩
● الفصل الثالث (معاً على طريق الرب)	٤٥
● الفصل الرابع (معاً من أجل الإنسان)	٨١
● الفصل الخامس (معاً من أجل الحياة)	١٧٧
● الفصل السادس : والآن .. باراباس .. أم	
المسيح ؟)	٢٢٩

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٩ / ٩٢٩٨

الترقيم الدولي ٢ - ٣٤٦ - ١٢٤ - ٩٧٧

ISBN

Biblioteca Universitaria

Universidad de Valencia



0324854

Class Date
الطبعة
المكتبة

To: www.al-mostafa.com